الباب الأول

بيئة الشماخ وحياته

الفصل الأول

بيئة الشماخ

تمهيد :

ليس من شك فى أن البيئة تلعب دوراً هامًّا فى تكوين الإنسان ، فهى تترك بصماتها على كثير من جوانب حياته المختلفة ، وقد يختلف تأثير هذه البيئة من شخص إلى آخر بفعل عوامل نفسية ، أو ثقافية . . . أو غيرها من الظروف والأوضاع الخاصة ، ومع ذلك يبقى للبيئة تأثيرها الذى يظهر بين أفرادها ، فى صورة عوامل مشتركة تجمع بينهم ، وهذه العوامل المشتركة تكثر أو تقل بحسب اختلاف البيئات ، فكلما كانت البيئة أقرب إلى الفطرة وأقل احتكاكاً بغيرها من البيئات التى نالت حظًّا أوفر من الحضارة ، كان تأثيرها على أهلها أشد ، ومن ثم كانت العوامل المشتركة التى تجمع بينهم أكثر وأوضح .

من أجل هذا كان لزاماً على الباحث عند دراسة شخصية معينة — أدبية أو سياسية أو غيرها — من بيئة معينة ، أن يبدأ بالحديث عن بيئتها ، وما فيها ، وما يتصل بها ؛ وذلك ليتعرف على العوامل المشتركة ، التى تربطها بغيرها من أهل بيئتها ، ثم يتصدى بعد ذلك لدراسة الحياة الخاصة بهذه الشخصية ، وبذلك يتسنى له أن يحدد ما فى نشاطها من السمات العامة والخاصة .

وإذن ، فلنبدأ بدراسة بيئة شاعرنا العامة ، ولنحاول أن نعرض فى إيجاز المقومات البارزة فى حياة هذه البيئة ، خلال الفترة الزمنية التى يحددها بحثنا هذا .

وشاعرنا بدوى ، عاش فى بادية نجد ، ومن ثم فهو ينتمى إلى بيئة بدوية ، وللبدو فى تلك الفترة طابع خاص ، فى مختلف شئون حياتهم ، أملته عليهم ظروف بيئتهم الطبيعية بوجه عام ، وهذا هو موضوع حديثنا التالى :

١ ـ الحياة البدوية فى الجاهلية

(ا) النظام القبلى :

البدو من العرب هم سكان الصحراء ، الذين يطلق بعض المؤرخين عليهم خاصة اسم « الأعراب »[١] . وهم كغيرهم من سائر البشر ، قد ركبت فيهم طبيعة الميل إلى الاجتماع ، وفرضت عليهم طبيعة بيئتهم لوناً خاصاً منه ، يقوم أساساً على رباط الدم والنسب . كان البدو «يعيشون جماعات فى منازل يختارونها من الصحراء ، وتربط كل جماعة أواصر الدم والنسب . وهذه الجماعة تعرف بالقبيلة»[٢] .

والقبيلة الواحدة كانت مقسمة إلى « عمائر » ، كل عمارة تضم عدة « بطون » ، وكل بطن يشمل عدة « أفخاذ » ، والفخذ ينقسم إلى « عشائر » ، والعشيرة إلى « أسر » ، والأسرة تتكون من عدة أفراد[٣] .

ومسكن أفراد الأسرة الواحدة خيمة من الجلد أو الوبر أو الشعر ؛ فإذا اجتمعت عدة أسر من قبيلة واحدة فى مكان واحد عرفوا باسم « الحى » ، وقد يطلق عليهم اسم « القوم » ، فإذا ما تجمع عدة أقوام يشتركون فى أصل واحد — ولو فى زعمهم — عدوا قبيلة واحدة .

وقد تتضخم القبيلة ، وتتشعب إلى فروع كثيرة يتمتع كل منها بوجود مستقل ، وحياة منفصلة ، ولا تتحد إلا فى الظروف غير العادية ، كالاشتراك فى الدفاع عن القبيلة ، أو القيام بغارات ذات خطر بالغ[٤] . كذلك قد تتشعب بعض بطون القبيلة الواحدة ، ويكثر أفرادها ، فتستقل هذه البطون عن قبيلتها ، وتصبح قبائل تتنافس على الشرف والرياسة . وقد يبلغ الأمر حد الاشتباك المسلح ، وإراقة الدماء بسبب هذه المنافسة .

فغطفان مثلا ، كانت قبيلة واحدة ، ثم كثر أولاد ذبيان ، فاستقلوا عنها ، وكونوا قبيلة سميت باسم أبيهم « ذبيان » ، وكذلك فعلت « عبس » من غطفان ، ولم تلبث العداوة

---

(١) تاريخ الأمم الإسلامية : ١٦/١ .
(٢) النابغة الذبيانى : ٣٦ .
(٣) راجع المصدر نفسه .
(٤) تاريخ الإسلام السياسى : ٥٢/١ .

أن دبت بين القبيلتين (ذبيان وعبس) بسبب التنافس على الشرف والسيادة ، فكان بينهما ما هو مشهور من الأيام المذكورة فى كتب الأدب والتاريخ ، والتى استمرت زماناً طويلا .

وإذن ، فالقبيلة فى المجتمع البدوى هى الوحدة الاجتماعية ، وهى تتألف من طبقات ثلاث :

١ — أبناؤها المرتبطون برباط النسب ، وعليهم قوامها .

٢ — العبيد : وهم الرقيق الذين اجتلبتهم القبيلة من أبناء البلاد الأجنبية ، وخاصة الحبشة .

٣ — الموالى : من عتقائها ، أو من أبناء القبائل الأخرى ، الذين احتموا بها فصاروا كأبنائها .

كذلك كانت القبيلة فى هذا المجتمع وحدة سياسية مستقلة تمام الاستقلال ، تخضع لسلطة أدبية تتمثل فى نفر من السادة ، هم فى العادة من زعماء العشائر ، ورءوس الأسر ، وكانوا يقدمون من بين هؤلاء واحداً منهم يعدونه « شيخ القبيلة » أو رئيسها ، تتوافر فيه أكثر من غيره صفات الزعامة والرياسة التى كان يتطلبها مجتمعهم فى الرؤساء من الشجاعة ، والكرم ، والحلم ، وكثرة الأنصار ، والثروة ، ورجاحة العقل . . . حتى يستطيع أن ينهض بمهام الرياسة ، من قيادة القبيلة ، وتوجيهها فى حروبها ، وإكرام ضيوفها ، وإعانة المُعْوز والضعيف من أبنائها ، وتحمل أكبر قسط من جرائر القبيلة — ولذا كانوا يميزونه فى الغنائم ؛ ليعينوه على ذلك — والفصل فى الخصومات بين أفرادها ، واتساع صدره لكل فرد من القبيلة ؛ « لأن الجميع ولدوا فى مهاد الديمقراطية ، فترى البدوى يقابل شيخه ، وقد وقف معه على قدم المساواة ؛ لأن المجتمع الذى ولد فيه قد سوى بين الجميع »[1] .

ولم يكن هذا الرئيس يتمتع بسلطات مطلقة ، بل كانت سلطته أدبية تقوم على نفوذه الشخصى ، ومدى اكتسابه لثقة أفراد القبيلة واحترامهم ، ولا عجب فهو بين قوم لم يذوقوا للخضوع طعماً ، ولم يعرفوا للعبودية معنى . . وفى ذلك يقول

---

(١) تاريخ العرب ، عصر ما قبل الإسلام : ٢١١ .

توماس أرنولد : « كانت كل قبيلة أو عشيرة تؤلف جماعة منفصلة ، ومستقلة تمام الاستقلال ، وينسحب هذا الاستقلال أيضاً على أفراد القبيلة ، فكل منهم لا يعتبر زعامة شيخ قبيلته أو سلطته ، إلا رمزاً لفكرة عامة ، شاءت الظروف أن يأخذ هو منها بنصيب ، بل كان مطلق الحرية فى أن يرفض ما اجتمع عليه رأى الأغلبية من أبناء قبيلته »[١] .

وكان لكل قبيلة عرف متبع ، وتقاليد متوارثة ، تتمسك بها تمسكاً شديداً ، وعن هذا العرف ، وتلك التقاليد ، كان يصدر شيخ القبيلة فيما يقوم به : من الفصل فى شئون القبيلة ، يعاونه مجلس من زعماء العشائر ، ورءوس الأسر ، يمثل الرأى العام للقبيلة ، ويتحدث بلسانها ، ويعمل لصالحها ، ولا بد له من استشارتهم « بل لابد أن يستمع إلى كل فرد من أفراد القبيلة ، فهم جميعاً أكفاء ، يتساوون فى الحقوق ، ومما يدل على هذه المساواة أن لكل فرد أن يجير من يشاء ، وإذا أجار شخصاً أصبحت قبيلته ملزمة به ، وله ما لأفرادها من حقوق ، وعليه ما عليهم من واجبات[٢] » .

ولم تكن هذه السلطة الأدبية المخولة لرئيس القبيلة مقصورة على الفصل فيما يحدث بين أفرادها من خصومات ، فلقد كانت القبيلة ترجع إلى رأيه فى شئونها الخارجية ، وعلاقاتها بغيرها من القبائل ، فهو الذى يستقبل وفود القبائل الأخرى ، ويعقد الصلح ، أو يعلن الحرب ، وينظم القتال . . .

ولهذا ، كان لرئيس القبيلة منزلة عظيمة ، وأثر خطير فى مجتمعها ؛ لأنه رجل السياسة فيها ، ورب هفوة منه ، أو عثرة لسان ، تجر القبيلة إلى حرب شعواء « إذ أن أعصاب البدو مرهفة ، تثيرها كلمة تمس الجاه أو الشرف ، ومن هنا كانت شخصية القبيلة مرتبطة بشخصية زعيمها ، فمتى كان قوياً أثرت قوته فيها ، ومتى كان ضعيفاً تأثرت بضعفه أيضاً . . . على أن الشعراء كان لهم دور كبير أيضاً فى رفعة القبيلة وضعتها »[٣] .

---

(١) الدعوة إلى الإسلام : توماس أرنولد : ترجمة الدكتور حسن إبراهيم حسن وآخرين – مطبعة الشبكشى بالأزهر بمصر سنة ١٩٤٧ : ص ٣٧ .

(٢) تاريخ الأدب العربى فى العصر الجاهلى (شوقى ضيف) : ٦١ .

(٣) مظاهر الشعوبية فى الأدب العربى للدكتور نبيه حجاب : ٢٤ – ٢٥ .

ومع ما لرئيس القبيلة من مكانة سامية بين أفرادها ، فإن هذه المنزلة لم تكن لتشفع له ، أو تحميه من غضب القبيلة وانتقامها إذا « ركب رأسه ، وغره سلطانه ، واستبد بقومه ؛ مثل كليب بن وائل ؛ فإن نفس العربى ، التى ألفت الحرية والعزة ، تأبى عليه أن يستكين طويلا لهذا الاستبداد من رئيس القبيلة ، ومصرع كليب على يد جساس بن مرة — وهو زوج أخته جليلة — كان نتيجة هذا البغى الذى لم يطقه العرب ، وكذلك لم يتأخر بنو أسد عن قتل حجر أبى امرئ القيس ، حين داخله الزهو واستبد بهم . . . »[1] .

ولكل فرد من أفراد القبيلة الحق فى التمتع بحمايتها ، والاستنجاد بها ، وعليها أن تدافع عنه ، وتثأر له إذا قتل ، وإذا اعتدى عليه ثأر لنفسه ، وعلى قبيلته أن تشد أزره ، وكذلك إذا ارتكب جناية خارج القبيلة كان على كل فرد من أفرادها أن يحتمل جنايته ، كما لو كان هو الجانى .

وجملة القول أنه كان على القبيلة أن تنصر كل فرد من أفرادها ظالماً أو مظلوماً .

فالقبيلة إذن ، هى ملجأ البدوى وملاذه ، ومن عزها وسطوتها يستمد عزه وسطوته ، فى تلك البيئة الصحراوية التى تتهدده فى كل وقت بالأخطار والمحن ، مما يجعله « فى أمس الحاجة إلى ملاذ يلوذ به وقت الشدة ، ونجدة تسعفه حين يخزبه الضر ، ويتراءى له شبح الخطر »[2] ، فكانت القبيلة هى درعه الواقية ، ومفزعه الذى يمده بالأمن ، ويأخذ بيده عند الشدة ، فحسبه أن يستغيث بها ، فإذا السيوف مشرعة ، وإذا الدماء تتصبب على أتفه الأسباب ، ومثلهم الأعلى فى ذلك قول قريط بن أُنيف :

لا يسألون أخاهم حين يندبهم فى النائبات على ما قال برهانا

من أجل هذا كان تعصب البدوى وولاؤه لقبيلته عظيماً ، واعتزازه بالانتساب إليها لاحد له ، فأمجادها ومآثرها ومفاخرها أغنيته التى يرددها فى زهو وإعجاب وتلذذ ، وهو يضع نفسه فى خدمة حقوقها ، ورهن إشارتها ، وخاصة حقها فى الأخذ بالثأر ، يشاركه فى ذلك كل أفراد القبيلة « فكل فرد يضحى للقبيلة بنفسه وماله ، فهى حياته وكيانه ، وهو مع اعتزازه بفرديته وحريته يعيش لها داخل إطارها

---

(١) النابغة الذبيانى : ٣٧ .

(٢) النابغة الذبيانى : ٣٧ .

مدفوعاً فى ذلك بعصبية شديدة ، وهى عصبية سيطرت على نفوسهم ، وقدسوها أكثر من الشعائر الدينية ، وربما تسامح الواحد منهم فى دينه — إذ لم يكن يهمه فى كثير من الأحوال — أما العصبية فإنه لايتسامح فى أى واجب من واجباتها . ويصور ذلك قول دريد بن الصمة :

وما أنا إلا من غَزِيَّةَ إن غَوَتْ غَويتُ وإن تَرْشُد غزية أرشد

فغيه ورشده مرتبطان بعشيرته ، إن ضلت ضل معها ، وإن اهتدت اهتدى معها ، وأمعن فيهما »[١] .

وكان لهذه العصبية القبلية أثر كبير فى الشعر العربى القديم ، فكثيراً ما دفعت الشعراء إلى العزف على قيثارتها بأعذب ألحان التمجيد والتعظيم ، والإشادة بأمجاد قبيلتهم ، وأيامها ومآثرها ، وأشد وأقسى القوافى فى ذم أعدائها ، ووصمهم بالعار والخزى ، وربما اشتهر الشاعر منهم بذلك ، حتى عد شاعر قبيلته ؛ ولذا كانوا يقولون : فارس القبيلة فلان ، وحاكمها فلان ، وجوادها فلان ، وشاعرها فلان [٢] .

وأثر هذه العصبية فى الشعر يتجلى للقارئ لأيام العرب ، ومختارات الحماسة ، وغيرها من مجموعات الشعر العربى ، حيث يقع على ديوان ضخم من هذا الشعر القبلى ، الذى كانت تثيره العصبية القبلية وتغذيه . .

كما كان لهذه العصبية أثر فى تنمية بعض الفضائل[٣] عند البدوى : كالتعاون ، والشعور بالولاء للجماعة ، وتقديم مصالحها على مصالحه الخاصة . . .

على أن هذه العصبية كثيراً ما كانت تفتح عليهم أبواباً من الشر ، ما كان أغناهم عنها ، لولا تلك العصبية المقيتة ، فكم من حروب جرتهم إليها ، أكلت شيوخهم وشبابهم ، وشردتهم فى الأرض ، وشغلت ملكاتهم عن التفكير فى تحسين حياتهم ، وتدبير أمر معاشهم ، فضلا عن أنها حالت دون وحدتهم فى نطاق مجتمع عربى كبير متماسك ، يسوده السلام ، وتربط بين أفراده وجماعاته أواصر الأخوة والألفة والتعاون . .

---

(١) تاريخ الأدب العربى فى العصر الجاهلى (شوقى ضيف) : ٦١ .
(٢) انظر : العمدة : ٢/١٥٥ .
(٣) انظر : النابغة الذبيانى : ٣٩ .

وسترى أن شاعرنا كان يعتز بقبيلته : « ذبيان » ويفخر بمجدها التليد، وشجاعتها الفائقة ، وإن كانت تلك النغمة القبلية ضعيفة فى شعره ؛ لظروف سوف نحاول أن نتلمسها فى دراستنا لحياته إن شاء الله .

(ب) العلاقات بين القبائل :

وإذا كانت القبيلة البدوية مستقلة بشئونها، بحكم ظروف بيئتها الصحراوية ، فإن هذه البيئة نفسها كانت تدفعها إلى الاحتكاك بغيرها من القبائل ، وما كان لقبيلة من قبائل البدو ، أن تعيش فى عزلة تامة عن غيرها ، فى تلك البيئة التى لا تتيح لها الاستقرار فى مكان واحد ، إلا بقدر ما يتوافر فيه من الماء والعشب ، وكثيراً ما كانت تشح عليهم الصحراء بمائها وكلئها ، فإذا هم فى رحلة مستمرة من موطن إلى آخر ، وهنا يكون — غالباً — الاصطدام بغيرها من القبائل التى ربما تكون قد سبقتها إلى المرعى ، فتحاول انتزاعه منها بأسنة الرماح ، وظبات السيوف . وفى ذلك يقول معوِّذ الحكماء معاوية بن مالك :

إذا سقط السماء بأرض قوم رعيناه وإن كانوا غضابا[1]

ولذلك ، كانت القبيلة دائماً شاكية السلاح ، تحمى حماها ومنازلها وآبارها ومراعيها . وقد يدفعها القحط أو قلة الماء والكلأ إلى الإغارة على القبائل المجاورة ؛ للسلب والنهب ولو كانت هذه القبائل يجمعها بها أصل واحد ، كما يقول القطامى :

وكنَّ إذا أَغَرْنَ على جَنَابٍ وأعوزهُنّ نَهْبٌ حيث كانا
أَغَرْنَ من الضِّبَاب على حُلُول وضَبَّةَ إنه مَنْ حان حانا
وأحياناً على بكرٍ أَخينا إذا ما لم نجد إلا أَخانا[2]

فتسيل الدماء ، ويسقط القتلى ، وكثيراً ما تلد المعركة معارك أخرى ؛ طلباً لثأر فات ، أو انتقاماً بمال غصب ، أو محواً لعار هزيمة سبقت . . .

وهكذا كانت حياتهم سلسلة من المعارك التى تنوعت أسبابها ، وكثرت

---

(١) اللسان (سما) .
(٢) النابغة الذبيانى : ٦٨ وانظر شرح الأبيات فى هامشه .

أيامها ، مما جعل العلاقة بين القبائل توشك أن تكون دموية الطابع فى أغلب الأحيان .

ولعل خير ما يصور هذه الحياة القائمة على كثرة الحروب والمنازعات التى لا تنتهى قول دريد بن الصمة :

أَبَى القتلُ إلا آلَ صِمَّة إنهم ... أَبَوْا غَيْرَه والقَدْرُ يجرى إلى القدر
يُغَارُ علينا واترين فَيُشْتَفَى ... بنا إنْ أُصِبْنا أو نغير على وتر
قَسَمْنَا بذاك الدهرَ شَطْرين بيننا ... فما ينقضى إلا ونحن على شَطْر

على أن هناك نوعاً آخر من العلاقة . كان يقوم بين بعض القبائل ، تدفعهم إليه أيضاً ظروف هذه البيئة ، التى كثرت فيها دواعى النزاع والقتال ، والاحتكام إلى السلاح ، فكثيراً ما كانت تلجأ القبيلة إلى التحالف مع غيرها من القبائل القوية ؛ فتهابها القبائل الأخرى لخشونة مسِّها . وهذه الأحلاف بين قبائل العرب ، كانت بمثابة المعاهدات السياسية فى أيامنا هذه ؛ إذ بمجرد أن تدخل القبيلة الضعيفة فى حلف ، يصبح لها على أحلافها كل الحقوق ، ومنها النصرة على الأعداء ؛ « لأنهم كانوا ينتسبون إلى الأعز لحماية الحميّة ، وإباء الدنية ، وسكون النفس إلى نفيس الكثرة والعصبية »[١] .

وقد تتحالف القبيلتان القويتان ، أو القبائل القوية للاشتراك فى الإغارة أو العدوان ، أو لدفع ضر مترقب ، كحلف ذبيان وأسد ، وحلف عبس وبنى عامر ضد تميم وذبيان [٢] . . . وغيرهما ، إلا أنه سرعان ما تنفصم عرى هذه الأحلاف ، وقد ينقلب المتحالفون أعداء متحاربين ، فكانت هناك أحلاف تضعف ، وتقوم مقامها أحلاف أخرى ، وذلك حسبما تمليه عليهم مصالحهم ؛ « والخلاصة أن روح الوئام ، كانت سائدة بين أفراد القبيلة الواحدة ، مفقودة تماماً بين القبائل المختلفة »[٣] .

---

(١) الحياة العربية من الشعر الجاهلى : ٢٠١ .
(٢) العقد الفريد : ٣٠٧/٣ .
(٣) تاريخ الإسلام السياسى : ٦٦/١ .

(ح) معيشة البدو وأحوالهم الاجتماعية :

بيئة البدو — كما نعلم — هى الصحراء ، والصحراء محدودة الموارد لا يتوافر فيها الكثير من وسائل العيش ، فهى غير ذات زرع ، يمونُ سكانها ، كما تخلو من الصناعة التى تدر على أربابها الربح . بل إن البدو أنفسهم كانوا يحتقرون الزراعة والصناعة والحرف عموماً ؛ لأن من شأن هذه الحرف أن تحد من حرية أصحابها فى التنقل والارتحال ، والبدوى عاشق لحريته ، لا يفضل شيئاً على حياته البدوية الرعويّة ، لما تتيحه له من حرية فى الحل والترحال ، فهو يقيم فى المكان ما وجد الماء والمرعى ، فإن أعوزاه طوى وطنه ، وأودعه ظهر راحلته ، وجلس فوقه ، وظعن إلى حيث يصفو له العيش ، ويطيب له المقام ، لا يحرسه إلا سلاحه ؛ ولا يحتكم إلا إلى ما جرى عليه العرف فى بيئته .

وأكثر ما كان يقوم معاش البدوى على رعى الأغنام والأنعام ، فمن لحومها شبعه وريّه ، ومن أصوافها وأوبارها يغزل لباسه وخيمته .

وإلى جانب ذلك كان يعتمد فى طعامه أحياناً على التمر . وقد يخلطه بالدقيق ، فإذا اجتمع التمر واللبن فذلك غذاء رافه ، وهو يستبدل بنتاج ماشيته ما يحتاج إليه من تمر وحب ولباس[1] .

ولم يكن للبدوى ملك خاص إلاّ ماشيته وخباؤه ، وما يحتويه من متاع متواضع ، أما المرعى والماء فكانا ملكاً للقبيلة بأجمعها .

هكذا كان عيش البدوى ، بسيطاً مقصوراً على ما هو ضرورى لحفظ الحياة ، وهو عيش مشوب بالضنك والشظف ، والكفاح العنيف ، ضد الطبيعة ومخاطر الصحراء ؛ ولذلك كان الفقر بينهم أكثر شمولا وأوسع دائرة ، يكاد لا يفلت منه إلا سادة القبائل ، الذين كانوا يملكون مئات الإبل[2] ، وهؤلاء السادة كان البون شاسعاً بين ثرائهم وفقر عامة البدو ، على أن ثراءهم لم يجر عليهم — بصفة عامة — هذا الحقد ، الذى يكنه الفقراء للأغنياء عادة ، فى المجتمعات التى يسوء فيها توزيع

---

(١) فجر الإسلام : ١٠/١ .

(٢) تاريخ الأدب العربى فى العصر الجاهلى (شوقى ضيف) : ٨١ .

الثروات ؛ لأن هؤلاء السادة — بما كانت تفرضه عليهم تقاليد البيئة والرياسة — كانوا أجواداً لا يضنون بمالهم على الفقراء والمعوزين من أبناء القبيلة ، أو ممن يقصدهم طالباً صلتهم من أبناء بيئتهم وخاصة الشعراء منهم . ثم إن هذا المال غير دائم ، فقد تذهب به سنة مجدبة ، ويعود الغنى فقيراً .

وإذا كانت حياة البدو فى الصحراء ، تقوم أساساً على تتبع مساقط الغيث ، وانتجاع الكلأ والماء ، فقد اقتضت ظروف بيئتهم الطبيعية ، أن يكون لحلهم وترحالهم مواسم معينة على مدار السنة ، فهم يقيمون على مياههم زمن الحر ، واشتداد القيظ ، لا يبرحونها إلا لغارة أو حرب . فإذا باخت سَوْرَةُ الحر وآذنت بالتولى وأخذت مساقط الغيث فى الاخضرار ، ابتدءوا يبدون ، وهم إذا أَبْدَوْا « لا يزالون يتبعون مواقع الغيث ، ويتحولون فى معاشيب الأرض ، ويشربون ماء السماء ، ويجتزون بالرَّطْب عن الوِرْد ، وهم فى سلوة من العيش . . يرمى بهم النوى المرامى ، فمن شعب يلتئم إلى شعب ، ومن جمع يلتئم مع جمع ، ومزار تقرب بعد بُعد ، ومطاف يسهل عقيب وعر ، ومواعيد بين الأحبة أُنْجِزَتْ ، وعقود من حبال جوار ووصال أوثقت ، حتى إذا تحرك الهيف ، وهو أول الحر ، ومبدأ البوارح بُدلت الأرض . . . فمن بقل ذابل ، وماء غايض . . . وهبج يشتد ، ووِرْد يمتد . . . فيتصدعون عن مباديهم ، ويتفرقون عن مقارّهم . . . فكم قلب لفراق الأحبة جزع ، ودمع لوداعهم همع ، وأنس لبينهم يقطع ، ووجد ببعدهم تجدد ، وكل هذا أتت به الأشعار . . . »[1] .

وسنرى أن شاعرنا متأثر فى شعره بهذه الأحوال إلى حد بعيد ، فمن ذلك قوله :

نظرت وسهْبٌ من بُوَانَةَ بيْننا ... وأَفْيَحُ من روْضِ الرَّبَابِ عَمِيقُ
إلى ظُعُنٍ هاجتْ علىَّ صبابة ... لهنَّ بأَعْلَى القُرْنَتَينِ حَرِيق
فقلت : خليلىّ انظرا اليومَ نظرةً ... لعهد الصّبا إذْ كنت لَستُ أَفِيقُ
إلى بَقَر فيهنَّ للعين منْظَرٌ ... ومَلْهًى لمن يلهو بهنَّ أَنيق
رَعَيْن النَّدى حتى إذاوَقَد الْحَصَى ... ولم يَبْق من نَوْءِ السِّماك بُرُق

---

(١) الأزمنة والأمكنة (المرزوقى) : ٢/١٢٧ — ١٢٨ .

تصدَّع فيه الحيُّ وانشقت العصا كذاك النَّوى بين الخَلِيط. شَقوقُ
ولمَّا رأيتُ الدارَ قَفْرًا تبادرتْ دموعٌ لِلَوْمِ العاذِلاتِ سَبُوق [١] .. الخ

كانت حياة البدو فى الصحراء قاسية — كما ذكرنا — وهى أشد ما تكون قَسْوَةً حينما تبخل عليهم بغذاء ماشيتهم « فيعمدون إلى الغارة على جيرانهم، حتى لا تضار نَعَمُهم ، فيهلكون بهلاكها . ويشتد الجدب فى الشتاء ، وفى الشتاء البرد والجوع ؛ ولذلك تكثر غاراتهم وحروبهم حين يعضهم الجوع بنابه ، لا يبالون بأى شىء فى سبيل حفظ الدِّمَاء وأَوَدِ الحياة » [٢] .

ومعنى هذا أنهم كانوا يتخذون الغزو وسيلة من وسائل الرزق ، على ما فيه من مخاطر تترصدهم ، وما يخلفه من ثارات تَجِدُّ فى إثرهم « فيكاد لا يكون هناك عشيرة ، بل أسرة إلا وهى واترة موتورة » [٣] .

وقد أورثتهم هذه الحياة — على مساوئها — كثيراً من الفضائل كالشجاعة ، والقدرة على الكفاح والنضال ، والصبر على الشدائد ، والاعتزاز بالنفس . . . وغيرها مما سيأتى بيانه إن شاء الله .

وكان من نعمة الله عليهم فى تلك البيئة أن وهبهم الإبل ، أكبر عون لهم على احتمال هذه الحياة الشاقة . فعليها كانوا يجوبون الصحراء ، وهى أكثر الحيوان قدرة على تحمل مشاق الصحراء ، وصبراً على الجوع والعطش ، وقد ألفها البدوى وألفته ، وطالت صحبته لها فى رحلاته ، فأخذ يحدوها ويبثها أشجانه ، وعرف شعراؤهم لها قدرها ، فأرسلوا القوافى فى التغنى بصفاتها وخصالها . . . حتى يكاد لا يخلو شعر أحدهم من ذكرها . . .

ويعد شاعرنا أحد نعات الإبل المجيدين ، كما سنرى عند دراستنا لشعره فى الوصف .

بقى أن نشير إلى أن كثيرين منهم ، كانوا يتخذون من صيد بعض حيوان

---

(١) الديوان : ١١/١ — ٧ وما بعدها .
(٢) النابغة الذبيانى ٥٨ — ٥٩ .
(٣) تاريخ الأدب العربى فى العصر الجاهلى (شوقى ضيف) : ٧٨ .

الصحراء ووحشها باباً من أبواب الرزق ، مستعينين بالكلاب ، يدربونها على ذلك ويُضرُّونها بالصيد . ومنهم من كان يعتمد على قوسه وأسهمه ، ويتربص الوحش قريباً من الموارد ؛ ولذلك كثر فى شعرهم وصفهم له ، وللمعارك التى كانت تقوم بين كلابهم وبينه . . .

وقد اشتهر الشماخ بوصف الحمر الوحشية والقوس ، كما تناول وصف الصياد فى شعره على ما سيأتى .

وإذا كانت حياة البدو على تلك الصورة ، فإن حظهم من الحضارة كان ضئيلا ، ومع ذلك فهم متفاوتون فى هذا الحظ ، فمن كان يعيش منهم فى أطراف البادية قريباً من حواضر الحجاز والعراق والشام واليمن ، كان أكثر تحضراً من البدو الضاربين فى بطن الصحراء ، كبعض قبائل نجد — ومنها قبيلة شاعرنا — الذين ظلوا فى شبه عزلة . فأسوار الصحراء تفصل بينهم وبين من حولهم من الأمم المتحضرة ، وليس عندهم من الفرصة أو الوقت ما يجعلهم يستقرون ويعملون فى سبيل حضارة متدرجة ، ومن هنا تخلفت قبائل نجد عن التقدم فى مضمار الحضارة ، إلا ما سقط إلى بعضهم سقوطاً ، عن طريق احتكاكهم بسكان العراق وسكان الشام[1] .

٢ — أثر الإسلام فى حياة البدو

كانت تعاليم الإسلام ومبادئه وأهدافه ومثله ، تشكل ثورة على الحياة العربية الجاهلية بعامة ، ثورة فى العقيدة والفكر والسياسة والمثل ، وأحوال الاجتماع المختلفة . . .

واستغرق الإسلام فترة طويلة من حياة الرسول (ص) وهو يكاد ينحصر فى المهاجرين والأنصار بالمدينة . وبعض أفراد القبائل المجاورة لها ، وتأخر إسلام كثير من القبائل العربية — وبخاصة البدوية منها — إلى ما بعد فتح مكة ؛ إذ أدركت أنه لا طاقة لها على حرب الرسول (ص) وأصحابه ، خاصة وقد أسلمت قريش زعيمة الوثنية ، وحاملة لوائها فى الجزيرة العربية . . .

---

(١) التطور والتجديد فى الشعر الأموى (شوقى ضيف — الطبعة الثانية — دار المعارف بمصر) : ٣٤ .

وإذن، فنحن نستطيع أن نستبعد فترة حياة الرسول (ص) عند الحديث عن أثر الإسلام فى البدو بعامة . فإسراع القبائل البدوية إلى الارتداد عن الإسلام، عقب وفاة الرسول (ص) أكبر دليل على أن هؤلاء البدو لم يتأثروا بالإسلام فى تلك الفترة ، لأنه لم يكن قد تمكن بعد من أن يتغلغل فى قلوب الكثيرين منهم وضمائرهم .

ولعل من الأمثلة التى تدل على أنهم كانوا حتى هذه الفترة يعيشون داخل إطار عقليتهم ونزعاتهم الجاهلية ، ما تصوره الكثيرون منهم فى دفع الزكاة لأبى بكر من الإذلال والتسلط . فقد نظروا إلى الزكاة وكأنها إتاوة مفروضة عليهم ، وهذا ما عبر عنه « قُرّة بن هبَيْرة » فى قوله لعمرو بن العاص أثناء حروب الردة : « يا هذا إن العرب لا تطيب لكم نفساً بالإتاوة ، فإن أعفيتموها من أخذ أموالها ، فتسمع لكم وتطيع ، وإن أبيتم فلا تجتمع عليكم »[1] .

وفى هذا ما يدل على أنهم لم يكونوا بعد قد تفهموا روح الإسلام ، وأدركوا أهدافه ومراميه .

فإذا كان هناك من أثر للإسلام فى حياة البدو فى صدر الإسلام ، فعلينا أن نلتمس هذا الأثر فى عهد الخلفاء الراشدين ، منذ أن تمكن الخليفة الأول ، من القضاء على حركة المرتدين ، وإرجاعهم إلى حظيرة الإسلام .

كان الإسلام يهدف إلى القضاء على الوحدة القبلية ، القائمة على الأنساب والتعصب لها والتفاخر بها ، وصهر العرب جميعاً فى بوتقته ؛ ليجمع بينهم على اختلاف أنسابهم ومواطنهم ، فى وحدة إسلامية سياسية ، قوامها الإتفاق فى العقيدة ، ونظام الحكم ، والآداب . يدينون فى ظلالها بالطاعة لولى الأمر فى الإسلام ، لا لرؤساء القبائل وسادتها ، وينصاعون لحكم الإسلام ، لا لعرف القبيلة وتقاليدها الموروثة ، ويستبدلون بالولاء للقبيلة ، والتفانى فى خدمتها ، الولاء للإسلام ، والتفانى فى خدمته ، ونشر تعاليمه فى ربوع الأرض ، ويلتمسون الأمن والحماية فى ظل راية الإسلام ، لا بالالتجاء إلى القبيلة ، والاعتماد على نصرتها ، ويعتاضون عن الأخوة فى الدم بالأخوة فى الإسلام ، ويقلعون عن مستهجن العادات والأخلاق والمثل

---

(١) فجر الإسلام : ٩٦/١ .

ليتحلوا بما سنه الإسلام من مكارم الأخلاق ، ومحاسن العادات ، ورفيع المثل : من التعاون على الخير والتعاطف . وأخذ القوى منهم بيد الضعيف ، حتى يحل التآزر والتآلف محل الخصام والنزاع والشقاق .

فهل استطاع الإسلام أن يحدث هذا التحول الخطير في حياة البدو خلال تلك الفترة التي نتحدث عنها ؟

الحق . أن الإجابة عن هذا السؤال تبدو شائكة ؛ لأن كثيراً ممن أرخوا لهذه الفترة (صدر الإسلام) من القدماء والمحدثين . لم يفرقوا كثيراً بين استجابة البدو لتعاليم الإسلام واستجابة غيرهم من العرب ، الذين كانوا يقطنون القرى والمدن العربية . كما نرى في قول « سير توماس أرنولد » : « وقد جمعت فكرة الدين المشترك تحت زعامة واحدة . شتى القبائل في نظام سياسي واحد ، ذلك النظام الذي سرت مزاياه في سرعة تبعث على الدهش والإعجاب ، وإن فكرة واحدة كبرى هي التي حققت هذه النتيجة . تلك هي مبدأ الحياة القومية في جزيرة العرب الوثنية ، وهكذا كان النظام القبلي لأول مرة — وإن لم تقض عليه نهائياً — شيئاً ثانوياً بالنسبة للشعور بالوحدة الدينية . . »[1] .

ولسنا نذهب هذا المذهب في التعميم ؛ ذلك أن الإسلام لم يصبغ كل العرب صبغة واحدة « بل إن خير من تأثر به هم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار ، أولئك وصل الدين إلى أعماق نفوسهم ، وأخلصوا له ، وأنفذوا أوامره . . . كذلك كان سكان المدن والقرى . بل من دخل في الإسلام بعد من الأمم الأخرى أكثر تديناً . وأعرف بأحكام الإسلام من كثير من سكان البادية . . ، فأهل البادية أشد جحوداً لتوحيد الله ، وأشد نفاقاً من أهل الحضر في القرى والأمصار ، وقد وصفهم الله تعالى بذلك [2] ، لجفائهم ، وقسوة قلوبهم ، وقلة مشاهدتهم لأهل الخير . . . فكثير من هؤلاء الأعراب . كانت معرفتهم بالإسلام سطحية . كانوا يعكفون على الشراب ،

---

(١) تاريخ الإسلام السياسي : ١/١٩٤ .

(٢) في قوله تعالى (سورة التوبة : آية ٩٧) « الأعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله . . . »

و يتبعون تقاليد قبائلهم الجاهلية ، ويعقدون ألويتهم ، ويحاربون القبائل المعادية لهم في الإسلام . كما كانوا يفعلون قبله . . .»[١] .

كذلك ظلوا على ما كانوا عليه ، من التفاخر بالأنساب ، والمهاجاة ، والحمية ، وغير ذلك من النزعات الجاهلية ، وقد ذكرنا قبل ، أن عمر بن الخطاب حبس الحطيئة ، لما كان يذهب إليه في شعره ، من قول الهجر وذم الناس ومدحهم بما ليس فيهم .

بيد أنه كان هناك إلى جانب هؤلاء الأعراب ، الذين اشتد جفاؤهم ، وتحجرت مداركهم : فلم يتأثروا بالإسلام في نظم حياتهم ، جماعات من البدو ، استجابت قلوبهم للإسلام ، وأنار الله بصيرتهم بهديه ، وألان قلوبهم للحق ، وأسلس قيادهم له ، فنبذوا العصبية القبلية ، والعادات الجاهلية ، التي جاء الإسلام بإبطالها ، يقول « نولدكه » : « إن كل قبيلة كانت تخضع للإسلام ، أو تدين له وتعتنقه ، تنزل عن حقها في الأخذ بثأر من سفكت دماؤهم في الوقائع والحروب ، مع أنا كنا نجد العربي في غير تلك الظروف ، يرى ترك الأخذ بالثأر ، أو دية الدم من أحط مظاهر الذلة والعار »[٢] .

وهذا قول عام ، وهو بالنسبة لقبائل البدو لا ينطبق إلا على هؤلاء الأعراب ، الذين وصفهم الله تعالى في قوله : « ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ، ويتخذ ما ينفق قربات عند الله ، وصلوات الرسول ، ألا إنها قربة لهم سيدخلهم الله في رحمته »[٣] .

وهناك من الروايات ما يشهد بما بلغه الإسلام من التأثير في بعض البدو ، مما نجده مبثوثاً في كتب التاريخ والأدب ، من ذلك أن « الخنساء »[٤] (تماضر بنت عمرو بن الشريد السلمي) قضت حياتها في الجاهلية باكية أخاها صخراً ، فلما أسلمت ، وجاءها خبر مقتل بنيها الأربعة في القادسية ، سجدت لله شكراً لأنه شرفها بقتلهم[٥] ، وخبر لبيد بن ربيعة الشاعر ، وما قيل من انصرافه عن قول الشعر في الإسلام ،

---

(١) فجر الإسلام : ١/٩٨ — ٩٩ .
(٢) تاريخ الإسلام السياسي : ١/١٩٧ نقلا عن نولدكه في كتابه (حياة محمد ، لدنبرج ١٩٢٣).
(٣) سورة التوبة : آية ٩٩ .
(٤) انظر ترجمتها وخبرها في : الأغاني : ١٣/١٢٩ وما بعدها .
(٥) تاريخ الأدب العربي في صدر الإسلام (السباعي بيومي) : ١١ .

واستعاضته عنه بقراءة القرآن مروىّ ومشهور [١] .

ولعل مما يصور ذلك من بعض الوجوه، ما جاء فى خبر القادسية، من أن « يزْدَجرْد » ملك الفرس، تكلم أمام وفد من المسلمين، فوصف حالة العرب فى الجاهلية، وما كانوا عليه من شقاء وتنافر وضعف . . . فكان ممن رد عليه «المُغيرة بن زُرَارة بن النَّبَّاش الأُسيدى» وجاء فى رده قوله: « . . . فأما ما ذكرت من سوء الحال، فما كان أسوأ حالاً منا ، وأما جوعنا فلم يكن يشبه الجوع . كنا نأكل الخنافس والجعلان، والعقارب والحيات، فنرى ذلك طعامنا، وأما المنازل فإنما هى ظهر الأرض، ولا نلبس إلا ما غزلنا من أوبار الإبل وأشعار الغنم ، ديننا أن يقتل بعضنا بعضاً ، ويغير بعضنا على بعض، وإن كان أحدنا ليدفن ابنته وهى حية ؛ كراهية أن تأكل من طعامنا ، فكانت حالنا قبل اليوم على ما ذكرت لك، فبعث الله إلينا رجلا معروفاً، نعرف نسبه، ونعرف وجهه . . . كان خيرنا فى الحال التى كان فيها أصدقنا وأحلمنا . . . فلم يقل شيئاً إلا كان ، فقذف الله فى قلوبنا التصديق له واتباعه، فصار فيما بيننا وبين رب العالمين . فما قال لنا فهو قول الله ، وما أمرنا فهو أمر الله . . . [٢] » .

فلا شك أن هذا القول يعبر عن مدى الانفعال بالإسلام عند هؤلاء البدو الذين خرجوا من الصحراء ليسهموا فى إعلاء كلمة الله .

وجملة القول : أن الإسلام لم يقض تماماً ، فى هذه الفترة، على النزعات الجاهلية فى البادية، وإن استطاع أن يخيفها، ويشدد النكير عليها، ويهددها بما له من سلطة، كانت تتمثل فى حكومة مركزية محترمة ، عزيزة الجانب، مرهوبة ، نافذة الحكم، وخاصة فى عهد الخليفة الثانى عمر بن الخطاب ، الذى عرف بشدته فى الضرب على أيدى المنحرفين عن سنن التعاليم الإسلامية .

أما عن أثر الإسلام فى أحوال البدو المعيشية . فقد اختلف بين فريقين منهم : فريق لزم البادية ، ولم يخرج إلى الأمصار الإسلامية ، وهؤلاء ظلوا يتنقلون على

---

(١) انظر : الأغانى : ١٤/٩٤ وقد ترجم له أبو الفرج ص ٩٠ وما بعدها وذكر أنه مخضرم وتوفى بالكوفة فى آخر خلافة معاوية .

(٢) تاريخ الأمم والملوك (الطبرى) : ٤/٩٤ - ٩٥ .

صدر الصحراء، معتمدين فى معاشهم على الرعى ، كما كانوا قبل الإسلام ، فلم تتحسن أحوال عيشهم ، إن لم تكن قد ساءت قليلا ، فقد سد الإسلام فى وجوههم مورداً كان من موارد رزقهم فى الجاهلية،وهو السلب والنهب عن طريق إغارة بعضهم على بعض ، أو على الأقل أصبح هذا المورد محصوراً فى أضيق نطاق ، خوفاً من سلطان الإسلام ، وغضب ولاة الأمر فيه ، هذا بالإضافة إلى ما كلفوا به ، من دفع الزكاة على أموالهم وأنفسهم .

وفريق آخر آثر الهجرة من موطنه فى البادية ، واتخذ من الأمصار دار إقامة ، هرباً من قسوة حياة البادية ، وأملا فى حياة مستقرة ، وعيش رغد ، ومن هؤلاء على سبيل المثال ، بطون من خزاعة ، جلت إلى مصر والشام فى صدر الإسلام[١] .

وكان أكثر هؤلاء من البدو الذين انضموا إلى الجيوش الإسلامية الفاتحة ، ولم يعودوا إلى مواطنهم فى البادية ، بل استوطنوا الكوفة والبصرة . . . وغيرهما من الأمصار الإسلامية .

ولا شك أن هذا الفريق من البدو ، قد تحسنت حالهم ، بما آل إليهم من الفىء والغنائم؛ فقد كانت الأموال تتدفق من البلاد المفتوحة ، والفروض تفرض للغزاة ولغيرهم من أهل السابقة ، ونظرة واحدة فيما أورده الطبرى[٢] وغيره ، من نظام الفروض فى عهد عمر، تدلنا على مدى ما كان عليه جند المسلمين ، وسكان الأمصار من حال ميسرة كافلة .

ولم لا ؟ وقد آلت إليهم كنوز الأكاسرة ، وأقبلت حمول الذهب والفضة ، والجواهر النفيسة ، والثياب الفاخرة من البلاد المفتوحة ، على الخليفة بالمدينة ، فأخذ يفرقها فى المسلمين ، توسعة عليهم .

ولقد بلغ من وفرة هذه الأموال أن قال عمر : « لقد هممت أن أجعل العطاء أربعة آلاف أربعة آلاف ، ألفاً يجعلها الرجلُ فى أهله ، وألفاً يزوّدها معه ، وألفاً يتجهز بها ، وألفاً يترفق بها . . . »[٣] .

---

(١) تاريخ آداب اللغة العربية (جورجى زيدان) : ١/٢١٥ .
(٢) انظر : تاريخ الأمم والملوك : ٤/١٦٢ .
(٣) المصدر نفسه .

ونحسب أن هؤلاء البدو النازحين قد تأثروا نفسيًّا وحضاريًّا، بما شاهدوه فى البلاد المفتوحة ، من طبيعة جديدة عليهم ، فيها الأنهار . والخصب ، والحضارة العريقة ، وفرق بين نفسية وخيال بدوى لم ير إلا الصحراء ، ونفسية وخيال بدوى رأى ما لم يسبق له رؤيته أثناء الفتوحات فى ممالك الفرس ، ومستعمرات الروم ، فضلا عما استشعروه من ثقة واعتداد بأنفسهم ، واعتزاز بدينهم ، وهم يرون هذه الممالك العريقة فى الحضارة تتهاوى تحت ضربات سيوفهم . بعد أن كانوا « يسمعون بالرومىّ أو الفارسىّ ، فيعظمون قدره ، ويتمثلون بسطوة قيصر وكسرى . . »[1] .

وكان جديراً بهم — وخاصة بالشعراء منهم — أن ينسوا الصحراء ، وإبلها ، ووهادها ، ونجادها ، والبوادى ونبتها إذ « لم تعد حياتهم حبساً على المطر ، ولا هدايتهم وقفاً على السماء الصافية ذات النجوم اللامعة ، ولا طلب عيشهم رهناً بالرحلة ، يشدون أكوارها ويعتلون أقتابها . . . »[2] .

إلا أنه يبدو أنهم ظلوا محتفظين بصفات بداوتهم ، ولم تستطع الحياة الجديدة أن تنتزع نفسيتهم وخيالهم من الصحراء التى نشأوا فيها ، وكان شاعرنا أحد هؤلاء البدو النازحين ، وأحد الغزاة الفاتحين ، الذين لا نلمح أثراً لهذه الحياة الجديدة فى شعر الشعراء منهم ، حتى فى فن الوصف ، الذى يتأثر فيه الشاعر عادة بمشاهداته ، فقد ظل فى وصفه مرتبطاً بمشاهد الصحراء ، لا يعدوها ، وكأنما تحجرت عيناه ، وفارقه خيال الشعراء على إثر خروجه من البادية .

---

(١) تاريخ آداب اللغة العربية (جورجى زيدان) : ١/٢١٥ .

(٢) تاريخ الأدب العربى فى صدر الإسلام . . (السباعى بيومى) : ٦ .

٣ ـ الصحراء

يقولون : الإنسان رسم تصنعه البيئة على صورتها[١] ، ويصدق هذا القول أكثر ما يصدق على بدو العرب وبيئتهم ، حيث تتمثل الفطرة التى لم تعبث بها يد الصنعة ، ولم تتناولها عوامل التهذيب والتغيير والتبديل ، فالصحراء بيئة البدوى ، وبيته الكبير ، وأمه التى نشأ بين أحضانها ، تتمثل فيها فطرة الطبيعة التى ظلت على حالها كما خلقها الله ، لم تتغير مناظرها ، ولم تتعدد مشاهدها .

وقد انعكست هذه الطبيعة على حياة البدوى ، فشكلته على غرارها ، وتأثر بها فى خَلْقه وخُلُقه ، وعاداته ، وعقليته وتفكيره ، ونظام حياته ، وأحوال معيشته[٢] .

لقد اقتضته معيشته فى بيئة فقيرة ، يغلب عليها الجدب ، أن يكافح فى سبيل الحصول على ما يحفظ عليه وعلى دوابه الحياة ، والصحراء قليلة الجود بوسائل العيش ، وقد فرضت عليه الرحلة من مكان إلى آخر ، يقيم ما وجد العشب والماء ، وينزح ما افتقدهما . وكثيراً ما يضطر إلى الدفاع عما يصيبه من ماء ومرعى ، ضد من تحدثه نفسه بانتزاعهما منه ، وإلا هلك مسغبة وظمأ ، بل قد يكون العدوان وسيلته الوحيدة للحصول عليهما ، فهو بين مغير ومغار عليه ، وفى كلا الحالين لا بد له من أن يتخذ للأمر أهبته ، وأن يحتاط لنفسه ليضمن الغلبة والفوز ، وأنى له ـ مهما بلغت قوته ، وعظم استعداده ـ أن يضمن غلبة ، أو يحرز فوزاً بمفرده ، وسط هذا الصراع العنيف مع الطبيعة ، وظروفها فى سبيل الحياة .

كان لابد له إذن من الاحتماء بالجماعة ، وكان لابد لهذه الجماعة ، أن تكون متماسكة أقوى ما يكون التماسك ، مترابطة أشد ما يكون الترابط ، وأى رباط أقوى من رباط الدم والنسب ، ومن هنا كان ما تحدثنا عنه آنفاً ، من نظام القبيلة ،

---

(١) أطوار الثقافة والفكر : ٣/١ .

(٢) لأستاذنا عمر الدسوقى بحث قيم ، فى الصحراء وأثرها فى حياة العرب وتكوينهم الخلقى والخلقى والفكرى لا زيادة بعده لمستزيد ، وقد أفدنا منه كثيراً (راجع : النابغة الذبيانى : ٤٥ وما بعدها . والفتوة عند العرب : ٢١ وما بعدها) .

والتعصب لها ، والتفانى فى خدمتها ، والاعتزاز بالانتماء إليها . ترعاه ويرعاها ، وتحميه ويحميها ، وتتكفل بمصالحه ، ويدافع عن مصالحها .

وهذه الظروف نفسها هى التى كيفت علاقاتهم بعضهم ببعض ، أفراداً وقبائل ، أعداء أو متحالفين ، كما حددت وسائل عيشهم . وقد مر بنا تفصيل ذلك . فلا نطيل بإعادته هنا .

وقد طالبتهم هذه البيئة المجدبة : أن يكونوا فى مأكلهم على حال من التقشف ، لا مجال معه للإفراط فى الطعام . أو الإكثار من ألوانه ، أو الافتنان فى طهيه ؛ ولذلك قل أن ترى بينهم سميناً مترهلا . لإقفار الأرض . وقلة الغذاء « لقد كان البدو — على حد تعبيرهم — مجموعة أو حزمة من الأعصاب والعظام والعضلات الدقيقة . . »[١] .

لقد تضافرت ظروف بيئتهم الطبيعية والمعيشية . على تكوين بنيتهم تكويناً قوياً سليماً من أدواء البدن والحواس[٢] .

فالصحراء بفضائها الرحب الفسيح . وشمسها الساطعة ، وهوائها النقى المتجدد ، وأخطارها المتربصة ، قد صهرت البدو فى بوتقتها . وكونتهم تكويناً يؤهلهم لتحمل المشاق . التى فرضتها عليهم طبيعة أرضهم ومعاشهم .

كذلك غرست الصحراء فيهم مجموعة من الخلال الكريمة . اقتضتها ظروف الحياة فيها . فاتخذوا منها مثلا عليا . حرصوا عليها ، وتغنوا بها .

لقد دفعهم جدب الأرض ، وقلة الخصب . إلى نوع من التعاطف الإنسانى ، يتمثل فى خصلة الكرم . التى كانت تفوق عندهم كل خصلة « فكان الغنى يفضل على الفقير ، وكثيراً ما كان يذبح إبله فى سنى القحط يطعمها عشيرته ، كما يذبحها قرير العين لضيفانه الذين ينزلون به ، أو تدفعهم الصحراء إليه . وكانوا يوقدون النار ليلا على الكثبان والجبال . ليهتدى إليهم الضالون والتائهون فى الفيافى ، فإذا وفدوا عليهم أمنوهم . حتى لو كانوا من عدوهم ، ويدور فى شعرهم الفخر بهذه النيران والتحدث عنها . . »[٣] .

---

(١) تاريخ العرب . عصر ما قبل الإسلام : (مبروك نافع) : ٢١٢ .
(٢) راجع : الفتوة عند العرب : ٢٢ — ٢٣ و ٢٧ — ٢٩ .
(٣) تاريخ الأدب العربى فى العصر الجاهلى (شوقى ضيف) : ٦٧ .

لقد كان الكرم عندهم شريعة اجتماعية فى مبدإ الأمرأ ، ومظهراً من مظاهر التعاون على ظروف حياتهم القاسية ، التى تبخل فيها الطبيعة عليهم بمقومات العيش أكثر مما تجود ، ثم هم معرضون أثناء رحلاتهم الدائبة إلى التخبط فى متاهات الصحراء ، والضلال فى طرقها ، ودروبها ، ومسالكها المتشعبة المتشابهة ، وقد ينفذ ما معهم من الزاد « وإذا لم يعمل الكرماء على نجدة هؤلاء الذين امتحنوا بنفاد زادهم ، أو ضلوا طريقهم . وتقطعت بهم السبل تعطلت الحياة فى الصحراء . . »[١] ولذا ارتفعت خصلة الكرم فى ميزان القيم عندهم ، حتى صارت فيهم سجية وطبيعة [٢] ، وعمل شعراؤهم على تنميتها فيهم ، وتثبيتها فى نفوسهم ، بما كانوا يطيرونه من آيات القريض فى الثناء على الأجواد ، وذوى الكرم منهم ، وتفخيم شأنهم ، والإشادة بعلو مكانتهم وشرفهم .

وكانوا يرون من حقوق القرى ، وتمام الإكرام ، بشاشة الوجه عند لقاء الضيف ، والترحيب به بإطالة الحديث معه . ولذلك قالوا : « من تمام الضيافة الطلاقة عند أول وهلة ، وإطالة الحديث عند المواكلة »[٣] . وفى ذلك يقول حاتم الطائى :

أضاحك ضيفى قبل إنزال رحله ويخصب عندى والمحل جديب
وما الخصب للأضياف أن يكثر القرى ولكنما وجه الكريم خصيب[٤]

ويقول الشماخ فى مدح عبد الله بن جعفر :

إنَّك يابن جَعْفر نعم الفتى
ونعم مَأْوى طارق إذا أتَى
وَرُبَّ ضيف طَرَق الحىَّ سُرَى
صادفَ زاداً وحديثاً ما اشْتَهى
إن الحديثَ طَرَفٌ من القِرَى...[٥]

---

(١) الفتوة عند العرب : ٦٠ .
(٢) أورد محمد بن حبيب أمثلة كثيرة من كرم العرب ، وذكر جملة من أجوادهم ، مما يدل على تقديسهم لهذا الخلق فيهم (انظر المحبر : ١٣٧ وما بعدها) .
(٣) البيان والتبيين : ١/١٠ .
(٤) العقد الفريد : ١/١١٨ .
(٥) ملحق الديوان : الأرجوزة ٥٠ .

وليس معنى هذا أن البدو كانوا كلهم كرماء ، مهينين للمال ، مسرفين فى ازدرائه ، فقد كان البخل آفة من آفات حياتهم الاقتصادية والاجتماعية — كما يقول الدكتور طه حسين[١] .

غاية الأمر ، أنه لم يكن خلقاً شائعاً فيهم شيوع الكرم ، كما كان مذموماً ، يشمئز منه جمهورهم ، والخلق إنما يحسب على الجماعة « إذا كان مألوفاً عند أفرادها ، يفعله فاعله منهم من غير أن يخشى نكيراً أو لوماً . . . »[٢] .

كذلك كان للشجاعة والفروسية عندهم منزلة سامية ، فهى مفخرة البدو ، فى هذه البيئة الحربية ، التى تكثر فيها دواعى النزاع ، كما تتعدد فيها مواطن الخطر ، حيث العراء الذى لا يحتمون فيه بأسوار ، أو جدران ، أو حصون ، تدفع عنهم غارة العدو ، أو هجمات وحوش الفلاة الضارية . حين يعضها الجوع ، فلا تجد ما تسكن به سعار بطونها إلا لحوم الإنسان والنعم .

كانت بيئة البدوى تغرس فى نفسه الشجاعة منذ طفولته « وكيف لا ، وقد ربى فى بيئة تتمدح بالشجاعة والبطولة ، والإقدام ، وحسن البلاء فى حماية الذمار ، والأخذ بالثأر ، وبالعدوان فى كثير من الأحيان ، وطالما فزع طفل على قعقعة السلاح ، وصيحات المقاتلين ، وسمع الأقاصيص عن شجعان من القبيلة حموها ، وردوا المغيرين عليها ، أو هجموا على أخرى وأجاوها ، ثم شب فرأى الرماح تشتبك ، والسيوف تتقارع ، والأبطال فى ميدان الوغى تتنازع ، ثم كبر فشارك فى المواقع ، وأفنى العمر فى المعارك ، فلا عجب أن كانت الشجاعة خلقاً عاماً فى العرب »[٣] .

وقد يذهب البدوى فى شجاعته إلى حد التهور ، فلا يأبه بالمخاطر ، بل يقتحمها ملقياً بنفسه إلى التهلكة ، لا يتردد ولا يتلوم ، فما هو إلا أن ينفعل متوهماً أن كرامته قد مست ، أو عرضه قد أهين ، حتى يسرع إلى سيفه ، محتكماً إليه دون تفكير ، أو روية ، أو تدبر فى عواقب الأمور ، ولا شك أن حرارة الصحراء هى التى أورثت البدوى حدة الطبع ، وسرعة الانفعال : « ومن هنا كان من السهل تحريك

---

(١) فى الأدب الجاهلى : ٧٧ .
(٢) تاريخ الأمم الإسلامية : ١/٣٩ .
(٣) الحياة العربية من الشعر الجاهلى : ٢٤١ .

عامتهم إلى السير فى طريق الحروب بقليل من الكلمات . . »[١] .

كما كانوا يقدرون الوفاء بالعهد ، وكان هذا الخلق فيهم بمثابة العقيدة ، يرون التحلل منه إثماً وجرماً فى حق الشرف والأخلاق ، فهم كثيراً ما يحتاجون إلى الاحتماء بالجوار ، أو النصرة بالحلف ، وهم « قوم رحل ، ليس لهم حكومة منظمة ، ولا قوانين مرسومة ، ولا قوة منفذة ، ولا محاكم ولا شرطة ؛ ولذلك كانت كلمة الشرف ، والوعد الصادق ، هى القانون الذى يقدسه كل عربى ، ويحرص على احترامه والخضوع له ، حرصاً على مصلحته الخاصة ، وعلى العدالة العامة فى المجتمع . . »[٢] .

فإذا وعد أحدهم وعداً أوفى به ، وأوفت معه قبيلته ، حتى لا يعرف بالغدر ، وفى ذلك سبة الدهر ، وعار الأبد ، « ولقد بلغ من كراهية العربى لهؤلاء الذين يغدرون ، وينقضون المواثيق ، ولا يوفون بالعهود ، أن يشهروا بهم فى سوق عكاظ ، فيرفعون لهم ألوية ليعرفهم الناس بغدرهم ، فلا يعاملونهم ، ويكون هذا تأديباً لهم ، وعظة لسواهم . . »[٣] .

ويطول بنا الحديث ، لو ذهبنا نتقصى ما غرسته بيئة البدوى فيه ، من خصال الحرية والنجدة ، وإغاثة الملهوف ، وعزة النفس ، وإباء الضيم ، والعفو عند المقدرة ، والغيرة ، والعفة ، وغيرها من الخلال التى تغنى بها شعراؤهم .

وإذا كان البدوى قد استجاب فى نظم حياته ، وأحوال معاشه ، وسائر طباعه وأخلاقه ، إلى ظروف بيئته الطبيعية والاجتماعية ، فقد كان فى عقليته وثقافته ومعارفه متأثراً بطبيعة الصحراء ، ومقتضيات الحياة فيها ، وما كان له أن يشذ فى ذلك عما هو معروف ، من أن كل إنسان يستمد مقومات عقيلته وثقافته وحضارته . . من ظروف بيئته .

كان البدوى يعيش بين أحضان طبيعة مكشوفة أمام عينيه ، ليس بينه وبينها حجاب ، قد ألف مظاهرها ، وعرف أحوالها ، وأحاط علماً بكل ما فيها ،

---

(١) تاريخ الأمم الإسلامية : ١/٤٠ .
(٢) الفتوة عند العرب : ١١٦ .
(٣) نفس المرجع : ١١٧ .

وانطبعت صورتها فى نفسه . وحسّه ، واضحة جلية « وقد نجم عن ذلك إلغاء العقل الباطن عند هذا العربى ربيب الصحراء ، وبسطت الطبيعة فى عقله الواعى . فهو حين يفكر فيها ، ويتأمل مشاهدها . . . لا يفكر من وراء جدر سميكة ، ولا تعتوره مخاوف مفزعة ؛ لأنه ألف طبيعة الصحراء وما فيها ، من شدة وقسوة ، حين يهدر السيل ، أو يقصف الرعد ، أو تزمجر الريح الزفوف ، أو تثور عواصف الرمال ، وما فيها من لين وجمال ، حين تهب الأنسام البليلة ، وتضوع رائحة الخزامى والعرار . . »[١] .

ومن ثم ، اتسم تفكيره بالوضوح والبساطة ، بلا تعقيد أو غموض «وهذا هو السر فى أن أدبهم واقعى يتحدث عن الطبيعة كما هى بدون اختلاق أو تزيد ، ويصورها تصويراً دقيقاً ، ملوناً بعواطف الشاعر وأحاسيسه إزاءها من غير كذب أو نفاق ، أو ادعاء أو افتراء عليها »[٢] .

وإذا كانت هذه الطبيعة ، بمظاهرها الحسّية الواضحة ، تلح على حواسه ليلا ونهاراً فقد لونت تفكيره وخياله بلون مادى حسى ، لأن حدود عقله تقف عند حدود عالمه المادى ، الذى يكتنفه ويحيط به من كل جانب .

فالبدوى « يتحدث بمعان متصلة ، اتصالا حميماً بواقع حياته ، وتنازعه للبقاء ، وملتصقة التصاقاً حاداً بالمظاهر المادية ، التى تقع عليها عينه ، فالفكرة التى تراوده ، لا ترد كظل معنوى هاجس لا شكل ولا جسد له ، بل تصطحب أبداً مظهراً من المظاهر الطبيعية ، أو ترد بشكل حسى ، لا ترتئى عنه ، أو تنفصل منه ، حتى تلتصق فى شكل آخر ، أو أشكال أخرى . . . »[٣] .

واقتضت قسوة الحياة فى هذه الصحراء ، وقلة موارد الرزق بها ، وسرعة تبدل أحوالها فيها ، وشدة يقظتهم خوفاً من أن تدهمهم أخطارها على غرة ، اقتضى ذلك كله ، أن يكون البدوى حاضر البديهة ، سريع الخاطر ، على شىء من الألمعية والذكاء ، حتى يستطيع مجابهة الأحداث الطارئة بما يناسبها ، من التفكير والتصرف السريع الحاسم .

---

(١) النابغة الذبيانى : ٤٦ .
(٢) نفس المرجع : ٤٧ .
(٣) فن الوصف (إيليا حاوى) ١/٧٠ .

ولقد عودته الصحراء أن يقصد إلى هدفه دون التواء؛ فهو إذا احتاج إلى الماء وشامه عن بعد ، قصد إليه فى أسرع وقت ، من أقصر طريق ، وانعكس ذلك على تفكيره ، إيجازاً فى التعبير ، واختصاراً فى الأداء .

وما كان البدوى ليعنى بالتفكير فى ما وراء مظاهر الطبيعة من حوله ، وماذا يدفعه إلى ذلك ، وحاجاته كلها مرتبطة بما تقع عليه حواسه ؟ فلم تتعقد أمامه الحياة ، فيدفعه تعقدها إلى التفكير فى مشكلاتها . والبحث عن حلول لها ، ومن ثم خلا تفكيره من التفلسف[١] ، واستكناه حقائق الأشياء ، ولم يتمرس عقله بتعليل الظواهر ، والربط بين الأسباب ومسبباتها .

أما ما كان لهم فى الحياة من « نظرات حكمية . وخطرات فلسفية . هدى إليها العقل السليم ، والفكرة الخاطفة ، والنظرة العجلى ، فلم تخرج عن أن تكون فى جملتها أشبه بالحقائق المجردة ، والبديهيات المقررة . التى لا تبعد عن متناول الفطرة ، ونتاج التجربة والمشاهدة . . . »[٢] .

ولذا لم يهتد عقله إلى علم منظم ، أو معرفة قائمة على التفكير والتعمق والاستنباط ، واستخلاص القواعد العامة ، والنتائج الدقيقة « وإلى هذه الظاهرة بعينها ، يرجع ضعف المنطق فى أدبهم وشعرهم ، فالأفكار لا تتسلسل تسلسلا دقيقاً ، ويقل ارتباط بعضها ببعض ، ارتباطاً وثيقاً ، على أن هذه الظاهرة — وإن كانت قد خفت بكفة أدبهم فى ميزان المنطق والتعمق ، وطبعته بطابع السطحية — قد رجحت فى موازين الرونق والجمال ، فأكسبته بهاءً ألمعيًّا ، وجمالا فطريًّا ، وكسته ثوباً خاصًّا ، وطابعاً من الروعة وحسن الأداء والوضوح والجلاء ، الذى يهز القلوب والمشاعر ، ولا تعيا به العقول والأفهام »[٣] .

اهتدى البدوى بفطرته إلى ألوان من المعارف[٤] اكتسبها عن طريق التجربة ،

---

(١) راجع فى هذا : النابغة الذبيانى : ٤٨ وما بعدها .

(٢) أطوار الثقافة والفكر : ١/ ٢٠ .

(٣) نفس المرجع : ١/ ٧ وانظر النابغة الذبيانى : ٥٣ — ٥٥ .

(٤) انظر فى معارف العرب : تاريخ الأدب العربى فى صدر الإسلام : (السباعى بيومى) : ٦٢ — ٦٦ ، وأطوار الثقافة والفكر : ١/ ٩ وما بعدها . وتاريخ آداب اللغة العربية (جورجى زيدان) ١/ ١٩٩ وما بعدها ، وتاريخ الأدب العربى فى العصر الجاهلى (شوقى ضيف) ٨٣ — ٨٥ .

والخبرة المستمدة مما يمارسه فى معيشته ، وما يزاوله فى مجتمعه ، ومما سقط إليه من معارف الأمم المجاورة ، وهذه المعارف ، بحكم فطريتها ، لا تصلح أن تسمى علماً ولا شبه علم[١] .

لقد أفادت الصحراء البدو رقة فى الإحساس ، وصفاء فى الذهن ، وجيشاناً فى العاطفة ، وسرعة فى البديهة ، والانفعال ، وأريحية للطبيعة التى ألفوها ، فى أية صورة تبدت لهم ، وحرية مطلقة فى التعبير عن المشاعر ، والبوح بما فى الضمير ، فإذا أضيف إلى هذا ، ما امتازت به لغتهم من ثراء وطواعية ، وجرس موسيقى ، أدركنا إلى أى حد توافرت لهؤلاء القوم دواعى الشعر ومقوماته ، حتى غلبت الشاعرية على الكثيرين منهم ، فانطلقوا يعبرون بالشعر عن عواطفهم وأحاسيسهم ، وأحلامهم وآمالهم وآلامهم ، فكان هذا الفن الجميل مجلى عبقريتهم ، وديوان حياتهم ، « فهو حداء الركب ، وغناء الماتح على البئر ، وأهزوجة المنتصر ، وأغرودة العاشق ، وسلوى المكروب والمحروب ، وهو متنفس العواطف . . »[٢] .

ولعل مما يصور قوة تأثير الصحراء ، فى استثارة عواطف البدوى ، وإلهامه الشعر ، ما روى عن محمد بن معن الغفارى ، قال : « أقحمت السنة المدينة ناساً من الأعراب فحلَّ المذاد منهم صِرْمٌ من بنى كلاب . . فأبرقوا ليلة فى النُّجُد ، وغدوت عليهم ، فإذا غلام منهم قد عاد جلداً وعظماً ، ضيعة ومرضاً ، وضمانة حب ، فإذا هو رافع عقيرته بأبيات ، قد قالها من الليل :

أَلا يا سنَا بَرْق عَلا قلَلَ الحِمَى ... لَهنَّك من بَرْقٍ على كريمْ
لمعتَ اقْتِذَاءَ الطَّيْر والقومُ هُجَّعٌ ... فهَيَّجْتَ أَسْقَاماً وأَنت سليم
فبتُّ بِحَدِّ الْمِرفَقَيْن أَشِيمُهُ ... كأَنى لبرق بالسِّتَار حمِيمُ
. . . . . [حتى أكمل خمسة أبيات]

فقلت له : فى دون ما بك ما يفحم عن الشعر ، قال : صدقت ، ولكن البرق

---

(١) أطوار الثقافة والفكر ١/ ٤ .

(٢) الحياة العربية من الشعر الجاهلى : ٩٦ .

أنطقنى ، قال : ثم والله ما لبث يومه ذلك تامًّا ، حتى مات قبل الليل ، ما يُتَّهم عليه غير الوجد »[١] .

وإذا كانت البادية قد أذكت هذه الشاعرية فيهم ، فقد طبعت شعرهم بطابعها ، وأثرت فيه تأثيراً قويًّا ، فجاء ممثلا لها أصدق تمثيل .

تأثر الشعر البدوى ببيئته الطبيعية والاجتماعية ، فى أسلوبه وألفاظه ، ومعانيه وأخيلته ، وموضوعاته .

فقد كانت حياة البدو فى الصحراء ، مقسمة بين الحل والترحال ، يقيمون ما وجدوا العشب والماء ، ويرحلون إذا خلا المكان منهما أو من أحدهما ، وكان اجتماع بعضهم ببعض ، وتفرقهم خاضعًا لهذه الظروف ، كما ذكرنا آنفًا .

وقد أوحت هذه الرحلات المتكررة ، للشعراء منهم بأسلوب القصيدة ، وعناصرها ، من حيث البدء بالغزل أو النسيب أو التشبيب ، ثم وصف الناقة والاستطراد من وصفها ، إلى وصف ما يشبهونها به ، من وحش الفلاة ، أو حيوانها أو طيرها ، وكثيراً ما يستطردون إلى وصف الطبيعة ، فيرسمون صورًا جميلة صادقة لما وقعت عليه عيونهم ، من مشاهدها خلال رحلتهم ، ثم تصل الرحلة إلى نهايتها ، فتصل القصيدة إلى الغاية منها ، من مدح أو فخر ، أو تحريض ، أو اعتذار ، أو حكمة ، أو غيرها من أغراض شعرهم[٢] .

وهكذا نرى أن القصيدة الواحدة ، كانت تتناول أكثر من موضوع ، وكثيراً ما كانت هذه الموضوعات ضعيفة الارتباط بعضها ببعض ، إذ ينتقل الشاعر غالباً ، من موضوع إلى آخر انتقالا مفاجئاً ، يقطع الصلة بين ما كان فيه ، و ما انتقل إليه ، والأمثلة على ذلك كثيرة فى شعرهم .

وسنرى هذه الظاهرة الأسلوبية بوضوح ، عند دراستنا لشعر الشماخ .

---

(١) مجالس ثعلب : القسم الأول : ١١٣ – ١١٤ . المذاد : موضع بالمدينة ، صرم : جماعة قليلة من الناس ، اقتذاء الطير : هو أن يفتح عينه ثم يغمضها ، وقد أكثرت العرب من تشبيه لمع البرق به ، أشيمه : أنظر إليه .

(٢) راجع تفصيل ذلك فى : النابغة الذبيانى : ٥٢ .

وكان هذا مما عيب على القصيدة العربية ، فقد قالوا : إنها « غير مرتبطة الأجزاء ، وليست لها وحدة ، فقد يتغير ترتيب الأبيات فى القصيدة دون أن يغير ذلك المعنى العام لها ؛ لأن كل بيت مستقل فى معناه ، تام بنفسه »[١] .

وقد كثر الجدل بين الباحثين المحدثين فى هذه القضية ، فمنهم من تهجم على هذا الأسلوب ، ومنهم من اعتذر له ودافع عنه[٢] .

ومهما قيل فى الاعتذار لهذا الأسلوب ، فالواضح أن تعدد الخواطر فى القصيدة الواحدة قد أضر بالبناء الفنى لهذه القصيدة ، وجعل أبياتها تتوالى طفرة بعد طفرة وكأنها قطع متناثرة ، يجمعها إطار واحد ، إلا أن ما فى شعرهم من عناية بالأجزاء ، والتدقيق فى تناولها ، جعلهم ينفذون إلى باطنها ، ويحيطون بكل دقائقها ، فيأتون بالمعانى البديعة التى تتصل بها . . .

أما الألفاظ والعبارات ، فقد تمثلت فيها خشونة البادية وصلابتها ، فجاءت قوية صلبة ، شديدة الاستحكام ؛ ولذلك كان الغريب أكثر شيوعاً فى شعر أهل البادية ، منه فى شعر شعراء القرى والمدن العربية .

وقد ذكرنا آنفاً ما كان لهذه البيئة البدوية ، من أثر فى ميلهم إلى التعبير عن أفكارهم فى أوجز لفظ ، وأقصر عبارة .

وقد أثرت طبيعة الصحراء التى عايشها البدو ، ونموا فيها ، على معانى شعرهم وأخيلتهم ، فهى فطرية بسيطة ، لا تعمق فيها ، ولا إغراب ولا ادعاء ، مما أسبغ على شعرهم جمالا فطرياً خلاباً .

كما غلبت عليها النزعة المادية ، فالصحراء بمظاهرها الحسية ، تلح على حواسهم صباح مساء « فتشبعت بها مخيلتهم ، ولم يجدوا لهم مندوحة ، حين يتغزلون فى النساء ، أو يمدحون ، أو يصفون الأناسىّ ، أو يهجون ، أو يطرقون أى موضوع من موضوعات

---

(١) النابغة الذبيانى : ٥٣ .

(٢) انظر : الديوان (للعقاد والمازنى) : ٤٧ وما بعدها . وقد أحسن أستاذنا عمر الدسوق التعليل لهذا الأسلوب ، والدفاع عنه . فى النابغة الذبيانى ٥٣ – ٥٤ .

الشعر ، إلا الالتجاء إلى الطبيعة ، التى تقع عليها حواسهم ، تلهمهم ألوان التشبيه ، وكثيراً من الصور المتباينة . . »[١] .

كذلك يدين الشعر البدوى للصحراء فى أكثر موضوعاته ، فحول ما غرسته فى أهلها من مثل ، وما طبعتهم عليه من عادات وتقاليد ، يدور ما فى شعرهم من حماسة ومديح ، وهجاء وفخر ورثاء ، ومن طبيعتها وما فيها ، من فلوات مقفرة ، وأودية مُعْشوشبَة ، وفجاج وشعاب ، وهضاب . ونجاد ، ووهاد ، وأحياء ، ومنازل ، ومصايف ، ومرابع ، وديار ، وأطلال ، ومياه ، وأمطار ، وسراب ، ورياح ، وما حوته أرضها ، أو ضمّه جوها ، من نبات وشجر وحيوان وَوَحش ، وطير ، وحشرات وهوام . . . وما يعلوها من سماء ونجوم وكواكب وسحب ورعد وبرق . .

من ذلك وغيره ، من مشاهد الصحراء ، التى ألفتها حواسهم وانطبعت صورها فى ضمائرهم ، استمدوا مواضيع الوصف فى شعرهم .

وعلى الجملة : لم يتركوا شيئاً يجول فى النفس ، أو يقع تحت الحس فى هذه البيئة الصحراوية ، إلا نظموه .

وبذلك كان شعرهم من أدق وأوثق مصادر دراسة حياتهم العاطفية ، والاجتماعية ، والعقلية ، وتصوير طبيعة بلادهم .

هذا عرض موجز ، لأثر الصحراء فى الحياة البدوية ، والشعر البدوى ، وسنرى عند دراستنا لشعر الشماخ ، أن صدى الصحراء كان قويّاً فى هذا الشعر .

---

(١) النابغة الذبيانى : ٥٥ .

٤ ــ قبيلة الشماخ

تمهيد :

تناول الكلام ــ فيما سبق ــ تصوير البيئة العامة ، التى عاش الشماخ تحت ظروفها المختلفة ، خاضعاً لنظمها ومقدّراتها ، متأثراً بقيمها وانطباعاتها .

ونحن نصل الحديث عن بيئة الشماخ فلا نقطعه ، بيد أن حديثنا هنا تضيق دائرته ، حيث ننتقل فيه إلى الكلام عن بيئة أقل عموماً ، أعنى عن « ذبيان »[1] قبيلة الشماخ .

ونحب أن نبادر إلى القول ، بأن قبيلة ذبيان ــ كغيرها من القبائل البدوية ــ لم تكن بمعزل عما ذكرناه آنفاً ، من العوامل العامة ، التى حددت حياة المجتمع البدوى وظروفه وقيمه ، فهى كجزء من هذا المجتمع ، قد خضعت لهذه العوامل ، وتأثرت بها ، ومن ثم ، تمثلت فيها سمات هذه البيئة العامة .

إلا أنه يبقى علينا بعد ذلك ، أن نتحدث عن ذبيان هذه من حيث : أصلها وفروعها ، ومنزلتها بين القبائل العربية ، وموطنها أو مواطنها من شبه الجزيرة العربية ، وصفة هذا الموطن ــ أو المواطن ــ وما كان فى حياتها من أحداث كبرى ، وبم كانت تدين فى الجاهلية ؟ ثم ما موقفها من الإسلام ؟ وأخيراً كيف كان حظها من دولة الشعر ؟

أصل ذبيان وفروعها ومنزلتها بين القبائل القيسية :

يعتمد حديثنا عن أصل ذبيان وفروعها ، على ما روى فى كتب المتقدمين ، وهذا الذى روى ، قد يكون عرضة للنقض والتجريح ، فى تفاصيله على الأقل .

---

(١) فى الغريب المصنف : ٣٦٩ « ابن الكلبى قال : كان أبى يقول : ذبيان ، بالكسر . وغيره ذبيان ، أى بالضم ، وفى التاج (ذبى) قال ابن الأعرابى : رأيت الفصحاء يختارون الكسر ، كذا قاله ابن السمعانى ، ورأيت فى المحكم ما نصه : الضم أكثر عن ابن الأعرابى .. وانظر أيضاً : نهاية الأرب فى أنساب العرب : ٢٥٥ ، والصحاح (ذبى) . وحكى صاحب التاج أقوالا فى أصل معنى الكلمة فى اللغة فلتراجع ثمة ، فى مادة (ذبى) .

ولكنا مع ذلك، لانستطيع أن نقف، لنحقق القول فى هذا المجال؛ إذ أن ذلك قد يبعد بنا عن نطاق هذا البحث. فضلا عن أنه مما يطول فيه الجدل، ويتعذر الوصول فيه إلى نتائج قطعية، أو تشبه أن تكون قطعية، وإذ قررنا هذا نقول :

ينسب الشماخ إلى قبيلة ذبيان، التى تضرب أصولها إلى « قيس عيلان »، وقيس هذه قبيلة كبرى، كانت تتمتع بسلطان مرهوب، ومكانة سامية، بين القبائل العربية فى الجاهلية، مما جعل بعض القبائل المستضعفة، تنضوى تحت لوائها، احتماء بعزيز جانبها[١].

كما أنها كانت تنازع قريشاً فى سيادة العرب، وقد أدت هذه المنافسة إلى اصطدامها بقريش، ومعها كنانة، فكانت بينهما وقائع دامية، وأيام مشهورة، كأيام الفجار وعكاظ[٢] . . .

وإلى قيس هذه تحول الشعر فى الجاهلية، فحملت لواءه بعد ربيعة[٣] .

ولما جاء الإسلام، وقفت قيس منه موقف المناهض، وناصبت المسلمين العداء، وكان من أشد قبائل قيس مناهضة للإسلام : غطفان وسُلَيْم، ولا أدل على ذلك من تلك الغزوات والسرايا الكثيرة، التى وجهها الرسول (ص) إلى هاتين القبيلتين؛ لردعهما عن عدوانهما المتكرر على المسلمين[٤].

أما الشرف والبيت من قيس، ففى بنى غطفان بن سعد بن قيس عيلان[٥] « وهم بطن متسع كثير الشعوب والبطون »[٦] ولذا كان يقال : إذا كنت من قيس ففاخر بغطفان[٧] .

---

(١) انظر معجم ما استعجم : ١/٦٠ — ٦١ .

(٢) راجع تفصيل أخبار هذه الأيام فى الأغانى : ١٩/٧٣ وما بعدها ، وانظر أيضا : الكامل لابن الأثير : ١/٢١٤ وما بعدها، والعقد الفريد : ٣/٣٦٨ وما بعدها ، وأيام العرب فى الجاهلية : ٣٢٢ — ٣٣٧ .

(٣) طبقات فحول الشعراء : ٣٤ ، وانظر أيضاً الأغانى : ١٩/٦ .

(٤) انظر : الطبرى : ٢/٢٩٨ وما بعدها ، وأيضاً ٣/٢ ، ٤٤ ، ٨٣ — ٨٤ ، ٩٣ ، ٩٩ وسيأتى زيادة تفصيل لموقف غطفان من الإسلام .

(٥) انظر : العمدة : ٢/١٥٥ .

(٦) صبح الأعشى : ١/٣٤٤ .

(٧) العمدة : ٢/١٥٥ .

ومن أشهر قبائل غطفان : عبس وذبيان ، وفيهما كان شرف غطفان وخطرها[١] .

وتضم ذبيان — خاصة — بطوناً كثيرة ، بلغ بعضها من الشرف والسيادة ، إلى حد أن دانت له قبائل غطفان ، بل قبائل قيس بأجمعها ، كما أنجبت ذبيان كثيراً من عظماء الرجال ، الذين لمعت أسماؤهم فى تاريخ الحياة العربية فى الجاهلية ، من أمثال الحارث بن ظالم ، فاتك غطفان ، وهرم بن قطبة ، حاكمها ، وهرم بن سنان ، جوادها ، والنابغة الذبيانى ، شاعرها[٢] .

(انظر الجدول المقابل وما عليه من تعليقات ، حيث بينا أشهر بطون ذبيان ، وبيوتات الشرف ، وعظماء الرجال فيها) .

ديار ذبيان وصفة هذه الديار :

تضم ذبيان — كما ذكرنا فى الفقرة السابقة — بطوناً كثيرة ، وقد تعوزنا إمكانيات البحث ، إن نحن ذهبنا نتتبع تحركات هذه البطون ، ومنازلها فى بيئة كثرت فيها دواعى الارتحال .

ونحن هنا نشير إلى بعض المنازل ، التى قد تعيننا — إلى حد ما — على تصور حدود المنطقة ، التى كانت تتحرك فيها قبائل غطفان عامة ، وبطون ذبيان خاصة .

كانت ديار غطفان بنجد ، مما يلى وادى القرى وجبلى طيئ : أجأ وسلمى[٣] .

وكانت ديار « أشجع » أقرب هذه الديار إلى المدينة ، روى ابن سعد : أن أشجع قدمت على رسول الله (ص) عام الخندق ، فنزلوا شعب سلع ، فخرج إليهم رسول الله (ص) فقالوا : يا محمد ، لا نعلم أحداً من قومنا أقرب داراً منك منا ، ولا أقل عدداً ، وقد ضقنا بحربك ، وبحرب قومك فجئنا نوادعك . . .»[٤] .

ونزلت « فزارة » من ذبيان وادى القرى ، وبه لقيهم زيد بن حارثة ، فى سريته

---

(١) الحيوان : ١/ ٣٥٩ .

(٢) العمدة : ٢/ ١٥٥ .

(٣) نهاية الأرب فى أنساب العرب : ٣٨٨ . وانظر أيضاً : صبح الأعشى : ١/ ٣٤٤ ، والتنبيه والإشراف : ٢٤٤ .

(٤) طبقات ابن سعد (لجنة الثقافة) ٢/ ٧١ .

جدول يبين أصل ذبيان وأشهر بطونها :

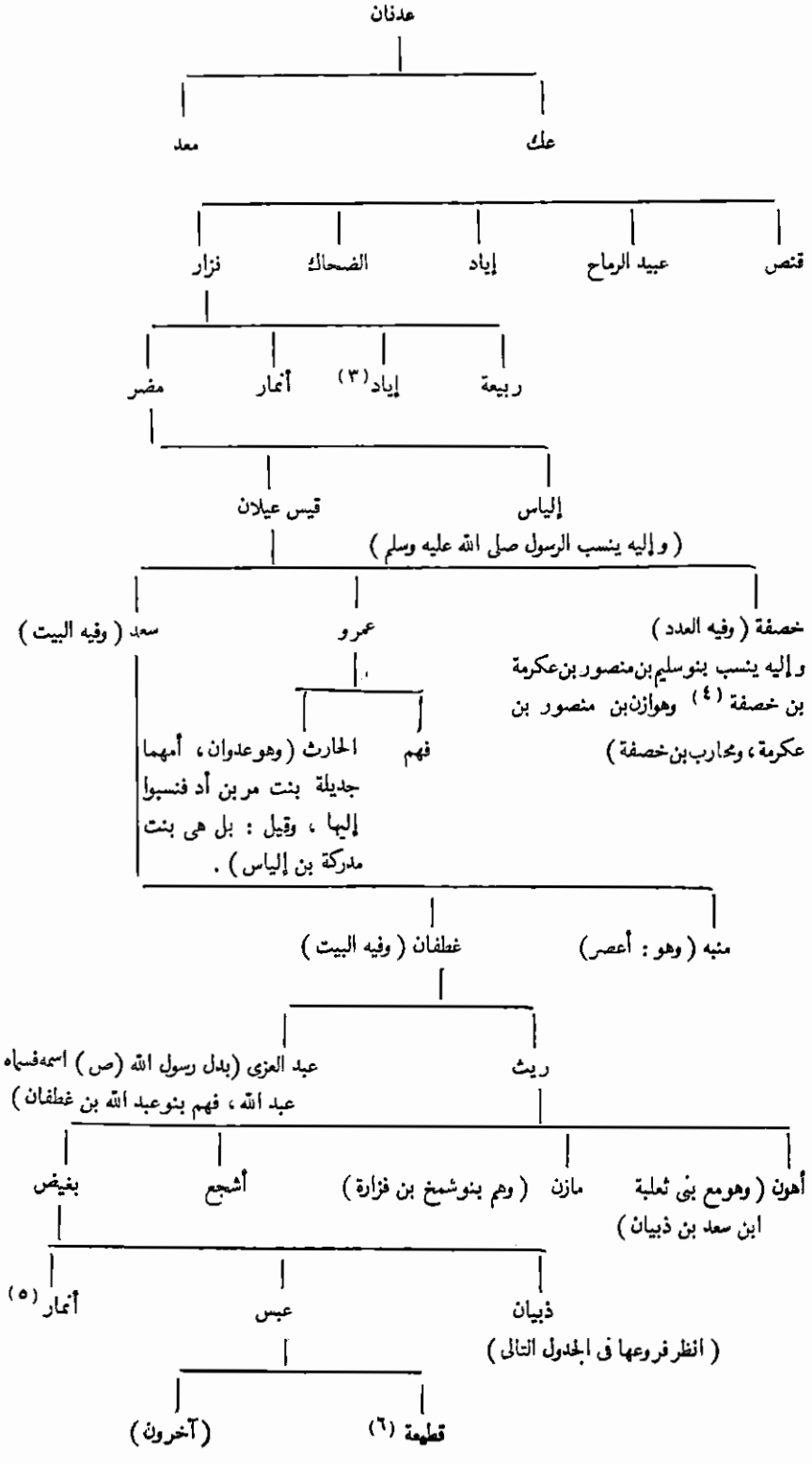

التى وجهها الرسول (ص) إلى وادى القرى[١] وهو على نحو سبع ليال من المدينة[٢].

---

(١) الطبرى : ٣/٨٣ .

(٢) التنبيه والإشراف : ٢٥٣ .

(٣) من القدماء من يعد (أنمار وإياد) فى أولاد (معد) ، ومنهم من يعدهما فى أولاد (نزار) انظر : جمهرة أنساب العرب ٨–٩ ، ومعجم ما استعجم : ١/١٨ ، والكامل لابن الأثير: ٢/١٠ ، وقد جرى على القول الأول من المحدثين : الدكتور حسن إبراهيم فى كتابة : تاريخ الإسلام السياسى ١/١٠ ، وجرى على القول الثانى الأستاذ السباعى بيومى فى كتابه : تاريخ الأدب العربى فى العصر الجاهلى (طبعة سنة ١٩٣٢) ص ٢١ .

(٤) جاء فى صبح الأعشى ١/٣٤٥ : «قال الحمدانى : وهم أكبر قبائل قيس ، وكانت منازلهم فى عالية نجد ، بالقرب من خيبر .. » ، وانظر أيضاً : نهاية الأرب فى أنساب العرب : ٢٩٥ .

(٥) من أنمار : بنات الخرشب ، منهن : «فاطمة بنت الخرشب» أم الكملة من بنى عبس ومنهن : «معاذة بنت بجير» أم الشماخ بن ضرار .

(٦) من ولد قطيعة : ربيعة بن مازن ، ومن ولد ربيعة : زهير بن جذيمة سيد عبس وغطفان ، وقيس بن زهير ، صاحب داحس والغبراء ، وكل بنى زهير (انظر : جمهرة أنساب العرب) : ٢٣٩ .

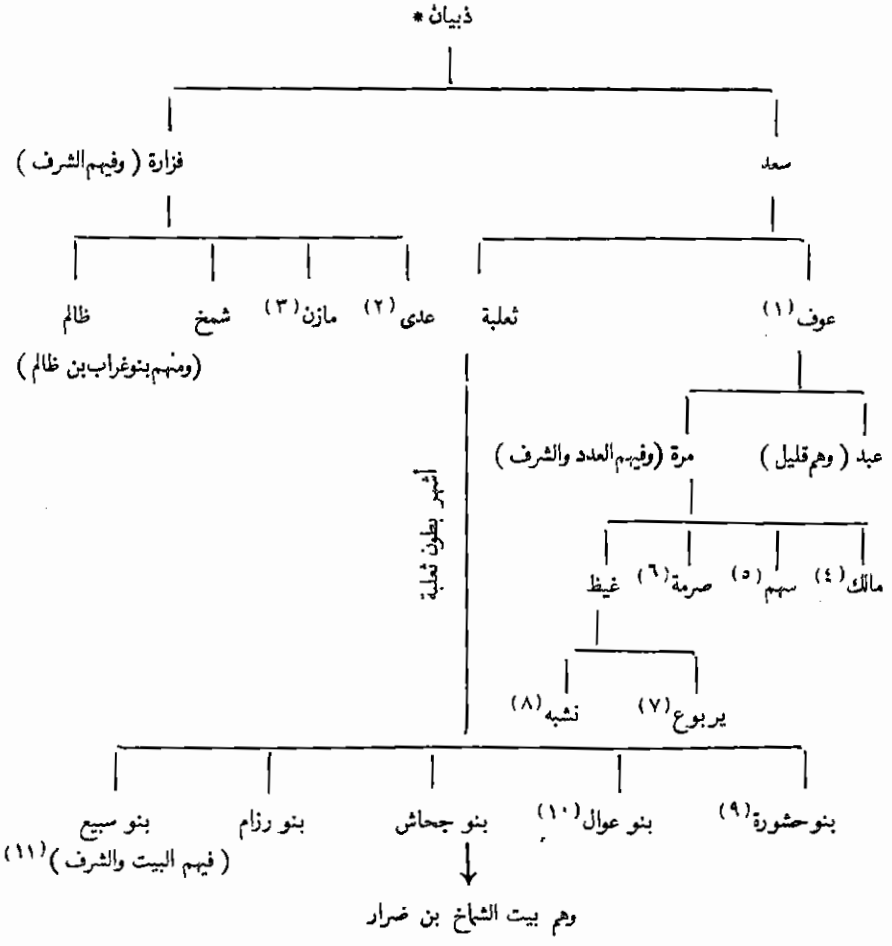

[اعتمدنا فى عمل هذا الجدول على :

١ – جمهرة أنساب العرب : ٨–١١ ، ٢٣٢ – ٢٤٣

٢ – المعارف : ٢٨ .

٣ – نسب عدنان وقحطان : ١١ وما بعدها

٤ – الاشتقاق : ٢/٢٨١–٢٨٧] .

---

* سوف نقتصر على أشهر بطونها .

(١) قال ابن حبيب فى المحبر : ١٦٩ « وبنو عوف بن لؤى [بن غالب بن فهر] وقعوا إلى غطفان فيقال : إن عوف بن سعد بن ذبيان بن بغيض هو عوف هذا .. » ، وانظر أيضاً : السيرة لابن هشام : ٧٣ ، ٧٤ ، والعقد الفريد : ٣/٣١٢ .

(٢) بنو عدى بن فزارة هم بيت قيس فى الجاهلية ، ومنهم : بغيض بن مالك بن سعد بن عدى ،=

. . . . . .

اجتمعت عليه قيس فى الجاهلية . وبنو عدى هم رهط بنى حذيفةبن بدر، وحمل بن بدر ، وكان لهما دور كبير فى حرب (داحس والغبراء) « وكانت فى بنى بدر رياسة فزارة فى الجاهلية ، بل إنهم كانوا يرأسون جميع غطفان » (النابغة الذبيانى: ٦٩) وانظر أيضاً : جمهرة أنساب العرب : ٢٤٣ ، ونسب عدنان وقحطان : ١١ وما بعدها ، والعمدة ٢/١٥٥ .

(٣) منهم : منظور بن زبان بن سيار، وابن عمه : هرم بن قطبة بن سيار، صاحب الحكومة بين علقمة بن علاثة، وعامر بن الطفيل ،وهو حاكم غطفان(جمهرة أنساب العرب : ٢٤٣) وانظر أيضاً : (العمدة : ٢/١٥٥) .

(٤) ومنهم بنو ربيعة بن عامر بن مالك (جمهرة أنساب العرب ٢٤٢) .

(٥) منهم : الحصين بن الحمام المرى الشاعر المشهور .

(٦) منهم : هاشم بن حرملة بن إياس ، سيد غطفان (جمهرة أنساب العرب ٢٤٢) .

(٧) منهم الحارث بن ظالم ، والنابغة الذبيانى ، وعقيل بن علفة الشاعر المشهور (جمهرة أنساب العرب : ٢٤٠ ، والمعارف : ٢٨ ، والعمدة : ٢/١٥٥) .

(٨) منهم هرم بن سنان ، الجواد المشهور وأخواه : خارجة بن سنان ، وعوف بن سنان ، وابنه الحارث ابن عوف صاحب الحمالة بين عبس وذبيان ، وأرطاة بن سهية الشاعر (جمهرة أنساب العرب : ٢٣٩ ، والمعارف : ٢٨) .

(٩) فى المعارف : ٢٨ « بنو حشور » وما أثبتناه، هو الموافق لما فى ديوان مزرد بن ضرار بشرح ثعلب : ٦٩ ، والاشتقاق : ٢/٢٨٥ .

(١٠) فى القاموس (عال) « وعوال كغراب: هى من بنى عبدالله بن عطفان » . ونص بن دريد فى الاشتقاق : ٢/٢٨٥ ، وعرام بن الأصبغ فى : أسماء جبال تهامة وسكانها : ٣٧٧ ،وابن سعد فى طبقاته ٣/٢٨ (طبعة القاهرة سنة ١٣٥٨) على أن بنى عوال من ثعلبة بن سعد .

(١١) انظر : المعارف : ٢٨ ، والاشتقاق : ٢/٢٨٥ .

وكان بنو مرة بن عوف من ذبيان، ينزلون « فدك »[١] بين خيبر وتيماء .

وننتقل إلى بنى ثعلبة بن سعد بن ذبيان — رهط الشماخ — فنذكر عدة مواضع فى ديارهم. وهى تشير إلى بعض معالم هذه الديار .

من هذه المواضع : « غيقة » وهى بظهر حرة النار[٢]، كانت لبنى سُلَيم بن منصور : بالقرب من خيبر[٣] بين وادى القرى وتيماء[٤]، وقد ذكرها الشماخ فى غير موضع من شعره[٥].

ومنها : « رحرحان » وهو جبل كثير القنان، أسفله سهلة، وهى لبنى ثعلبة بن سعد، ويقع رحرحان غربى الربذة، التى جعلها عمر بن الخطاب حمى لإبل الصدقة، وبين رحرحان والربذة بريدان[٦]، وقد تردد ذكر رحرحان فى شعر الشماخ[٧].

ولبنى ثعلبة أيضاً موضع يقال له : « الصُّراد »، وهو قريب من رحرحان، وبينهما ماء لبنى أشجع، يقال له : الثاملية، وقيل : إن الثامليّة بين الصراد والمرَوْرَاة، والمروراة جبل لأشجع[٨]، ومعنى هذا، أن ديار ثعلبة كانت تجاور فى البادية ديار أشجع، التى ذكرنا أنها كانت أقرب ديار غطفان إلى المدينة .

ومن مياه بنى ثعلبة بن سعد ماء يقال له : « الطَّرف » — على مثال كتف — وهو على ستة وثلاثين ميلا من المدينة، على طريق العراق[٩].

---

(١) التنبيه والإشراف : ٢٦٢ والكامل لابن الأثير : ٢/٨٦ .

(٢) معجم البلدان : ٦/٣١٨، وانظر أيضاً : معجم ما استعجم : ٣/١٠١٠ .

(٣) انظر : التاج (حرر) .

(٤) صبح الأعشى : ١/٣٤٥ .

(٥) انظر : الديوان : القصيدة : ١٧ البيت : ١٨، وأيضاً ملحق الديوان المقطوعة : ٢٣ الشطر : ٨.

(٦) معجم ما استعجم : ٢/٦٣٣ . والبريد بالبادية اثنا عشر ميلا (انظر مقدمة الجزء الأول من معجم البلدان) . والربذة : قرية فى جهة الشرق من المدينة، على نحو ثلاثة أيام على طريق حاج العراق (انظر : التاج — ربذ) وكانت لبنى ثعلبة بن سعد، استولى عليها أبو بكر فى حروب الردة، وأجلاهم عنها فلما استتب له الأمر، جاءه بنو ثعلبة يسألونه أن يردها إليهم؛ ليعودوا إلى منازلهم، فرفض (انظر : الصديق أبو بكر للمرحوم محمد حسين هيكل : ١١٨ الطبعة الثانية سنة ١٣٦٢ هـ) .

(٧) انظر : الديوان : القصيدة : ٥ البيت : ٢٨ وأيضاً : ٧/٥، ٨/١١ .

(٨) معجم ما استعجم : ١/٣٣٤ .

(٩) انظر : التنبيه والإشراف : ٢٥٣، وأنساب الأشراف (مطبوع) : ١/٣٧٧ .

ومن منازلهم : « ذو القَصَّة » وكان ينزلها منهم « بنو عوال » خاصة[١] وهو على عشرين ، أو أربعة وعشرين ميلا من المدينة على طريق الربذة من جادة العراق ، وإليها وجه الرسول (ص) محمد بن مسلمة الأنصارى . فى سرية إلى بنى ثعلبة[٢] .

ويذكر ابن سعد : أن ديار بنى عوال ، وبنى عبد بن ثعلبة « بالميفعة » وهى وراء « بطن نخل » إلى « النقرة » بناحية نجد . وبينها وبين المدينة ثمانية بُرُد[٣] .

ولبنى جحاش منهم خاصة — وهم بيت الشماخ — ماء يقال له : « ظبى » بالقرب من معدن بنى سليم[٤] ، ومعدن بنى سليم من أعمال المدينة ، على طريق نجد[٥]

وفى شعر الشماخ : أن أهله مرة « بالجناب » :

أَقولُ وأَهْلِى بالجِنَاب وأَهلُها بِنَجْدَيْنِ لا تَبْعد نَوَى أُم حَشْرَجِ[٦]

والجناب من ديار فزارة بين المدينة وفَيْد[٧] .

ومرة أخرى ، هم بأطراف « اللوى » :

تَحُلُّ سَجَا أَو تجعلُ الغَيْل دونها وأَهْلِى بأَطْرَافِ اللِّوَى فالْمُوَتَّجِ[٨]

واللوى : واد من أودية بنى سليم[٩] .

وجاء الإسلام ، فتفرقت قبائل غطفان ، فى الفتوحات الإسلامية ، واستولى على مواطنهم — التى كانوا فيها قبل الإسلام — قبائل طيء[١٠] .

---

(١) طبقات ابن سعد (لجنة الثقافة) : ١٢٨/٣ ، وانظر أيضاً : أسماء جبال تهامة وسكانها : ٣٧٧ . وفى معجم ما استعجم : ١٠٧٦/٣ « ذو القصة : موضع فى طريق العراق من المدينة . . . على بريد من المدينة » .

(٢) التنبيه والإشراف : ٢٥٢ .

(٣) طبقات ابن سعد : ١٦٦/٣ (لجنة الثقافة) .

(٤) معجم البلدان : ٨٣/٦ .

(٥) المصدر السابق : ٩٤/٨ .

(٦) الديوان : القصيدة : ٢ البيت : ٢ .

(٧) معجم البلدان : ١٤١/٣ . وفيد : قيل : نجد قريب من أجأ وسلمى ، جبل طيء ، وقد ذكرنا أقوالا أخرى فيه فى شرح البيت : ٢٨ من القصيدة : ٥ من الديوان فلتراجع ثمة .

(٨) الديوان : القصيدة : ٢ البيت : ٢٢ .

(٩) الجبال والأمكنة والمياه : ١٤٢ .

(١٠) صبح الأعشى : ٣٤٤/١ .

ولسنا نعرف من أمر هذه المواطن الجديدة — بعد الإسلام — إلا ما كان من نزول بنى عبد غنم بن جحاش الكوفة بالعراق[١] .

إذن، فقبائل غطفان — ومنها ذبيان — كانت — قبيل الإسلام — تتحرك فى تلك المنطقة من نجد، التى تلى الحجاز شرقاً. والتى تمتد من وادى السرحان، فى بادية السماوة شمالا، إلى وادى الشَّربة قريباً من المدينة، ومعدن بنى سليم جنوباً، ومن جبلى طيئ (أجأ وسلمى) شرقاً، إلى وادى القرى غرباً .

ويجدر بنا — قبل أن نأخذ فى وصف هذه المنطقة — أن نشير إلى أن هذه الرقعة من نجد، لم تكن مستقلة عما يجاورها ، وأن قبائل غطفان لم تكن بمعزل عن غيرها من القبائل ، لا تخالطهم ، ولا ترحل إليهم[٢] .

وإذن، فينبغى أن نتناول بالوصف شمالى نجد، مما يلى الحجاز، وهو ما يعرف بنجد الحجاز[٣] .

ونستطيع أن نميز فى هذا الجزء من نجد «صحراء النفود» وهى صحراء شاسعة، تغطى معظم شمال بلاد العرب، وفيها تكثر الكثبان الرملية «ولا يوجد فى القسم الوعر منها آبار . ولكن فى أطراف جهاتها الأربع، آبار تردها القوافل . .»[٤] بيدأن رطوبة الجو بها، تساعد على نمو النباتات الصحراوية، ذات الجذور الطويلة، مثل : الأرطى والأثل، كما «أنها تلقى فى بعض الأشتية ما يكفى من المطر، ليغطيها ببساط من الخضرة، ويحولها إلى فردوس للجمال والغنم، التى يرعاها البدو المتجولون»[٥] . ولولا هذا لتعذرت فيها الحياة، ودرجة الحرارة فيها لا تستقر على حال، فبينما هى مرتفعة، إذ بها تنخفض إلى درجة يشعر بها الإنسان بالبرد[٦] .

وإلى الجنوب من هذه الصحراء، تقع منطقة جبلى طيئ، وتتميز بجبلى (أجأ وسلمى) وهما يمتدان على شكل هلال كبير . وهذه المنطقة أكثر بلاد نجد اعتدال هواء فى الصيف ، وتشتد برودة جوها فى الشتاء لارتفاعها، وبها الكثير من ينابيع

---

(١) انظر : ديوان مزرد بن ضرار بشرح ثعلب : ٥٢ .
(٢) النابغة الذبيانى : ٥٧ .
(٣) انظر : جغرافية شبه جزيرة العرب ٢٢٠ .
(٤) المصدر السابق : ١٥ .
(٥) تاريخ العرب (فليب حتى) : ١٩ .
(٦) جغرافية شبه جزيرة العرب : ١٥ .

المياه ، كما تجود عليها السماء شتاء ؛ ولذا كثرت فيها الأعشاب ، وهى على العموم أخصب بقاع نجد ؛ ولذا تكثر إليها رحلة القبائل ، التى تقطن قريباً منها — ومنها قبائل غطفان — زمن الربيع ، لتصيب نعمهم من مراعيها الخصبة ، حتى إذا أقبل القيظ ، ويبس العشب ، عادوا إلى مياههم ومنازلهم .

ونجد ككل صحراء بلاد العرب ، ليس بها عموماً أنهار جارية ، بل أودية تجودها الأمطار ، فتخضر فى الربيع ، حيث تنمو بعض الأعشاب والمراعى ، وعلى هذه الأمطار ، وما تنبته من مراع وأعشاب ، تعتمد حياة البدو بصفة عامة ، ومن ثم ، كانوا يسمون المطر غيثاً ، لأنه يغيثهم ، فينقذ حياتهم وحياة نعمهم ، التى عليها بلاغهم فى شبعهم وريهم وحمولهم ، فإذا احتبس هذا الغيث ، جفت الحياة ، وهلكت القطعان والرعاء ؛ ولذا كثرت رحلتهم ، يطلبون مساقط الغيث ، وينتجعون الكلأ والماء ، وهم كثيراً ما يقتتلون ، فى سبيل ذلك ، وخاصة فى الشتاء ، حيث يشتد البرد والجوع ، فتكثر غاراتهم وحروبهم ، كما ذكرنا آنفاً .

وإلى جانب ما ينبته المطر من أعشاب ومراع ، تنبت بأودية نجد بعض الأشجار ، كأشجار الأرطى ، والسدر والأثل ، والطلح ، ومن أهم أشجاره وأكثرها النخيل « وتعد النخلة ملكة النباتات العربية ، وهى تنتج أكثر الثمار انتشاراً ، وأعظمها تقديراً ، ذلك التمر الذى لا نظير له ، والتمر واللبن أشهر لونين فى قائمة طعام البدو . . . وحلم كل بدوى : أن يحصل على الأسودين : أى الماء والتمر . . . »[1] .

وقد تحتفظ بعض أودية نجد بمائها ، إلا أن ذلك قليل ، ومياه بعض هذه الأودية ملحة ، غير صالحة للشرب . ومن ذلك آبار وادى الشِّربة ، فى ديار غطفان ، ووادى الشِّربَّة هذا ، من أشد بلاد نجد قرًّا[2] ، كما تكثر فى وادى السرحان البحيرات الملحة[3] .

وتشتد الحرارة بنجد فى الصيف عموماً ، إلا أنها تعتدل بالليل ، وفى طرفى النهار ، فى الجهات العالية ، كمنطقة جبلى طيئ ، أما فى الشتاء ، فهو شديد البرودة « وتقل

---

(١) تاريخ العرب (فيليب حتى) : ٢٣ .

(٢) التاج : شرب .

(٣) النابغة الذبيانى : ٥٧ .

الرطوبة فى نجد الأوسط والأعلى، بدرجة كافية ، لتعديل أثر الجفاف »[١].

وقد تغنى الشعراء قديماً بهواء نجد، وأسهبوا فى وصف نسيمه ، وطيب شميمه، وريا عطره وشذاه ، وأكثروا من التغزل فى رقة نسيم الصبا — وهى ريح شرقية لطيفة منعشة — أما تلك التى كانت تهب عليهم شتاء وصيفاً من المغرب، فهى « الدبور » وهى قليلة الهبوب ، فإذا هبت أيبست الأرض ، وأحرقت العود . وهناك ريح « الشمأل » وكانت تهب عليهم من ناحية الشام ؛ ولذا سموها شآمية ، وكان تأتيهم بالبرد ، وتقشع الغيم ، كما كانت أدوم رياحهم فى الشتاء والصيف ،وأما ريح « الجنوب » — وتسمى اليمانية — فهى التى تنشئ السحاب عندهم وتستدره ؛ ولذا كانوا يتيمنون بها ، ويجعلونها مثلا للخير ، ويجعلون الشمال مثلا للشر ، ويتشاءمون بها ، وهناك أيضاً « السموم » وهى ريح حارة ، و « النكباء » التى تسوق السحاب الجهام . . [٢] .

وقد ذكر شعراؤهم[٣] هذه الأنواع من الرياح، ومدحوا منها ما لطف من حر بلادهم ، أو ساق لهم الحيا، فبرقش الأرض بالنبت ، وذموا منها ما شوى وجوههم بلفحه ، أو أهرهم ببرده .

ونجد تشتهر بأحسن وأجمل أنواع الخيل ، وخاصة منطقة جبلى طيئ ، كما تكثر بنجد الإبل والغنم ، وفى صحاريه وعلى قمم جباله تعيش قطعان حمر الوحش، والبقر الوحشى ، والفهد ، والثعلب ، والذئب ، والغزال ، والأرنب ، والحبارى ، والنعام ، وابن آوى[٤] . . وغيرها .

وسنجد فى دراستنا لشعر الشماخ ، أن وصفه لبعض حيوان نجد قد استغرق معظم فنه .

---

(١) جغرافية شبه جزيرة العرب : ١٥ .

(٢) انظر تفصيل الكلام على هذه الرياح فى : الأنواء لابن قتيبة : ١٥٨ — ١٦٧ .

(٣) ورد ذكر لبعض أنواع هذه الرياح فى شعر الشماخ . انظر : الديوان : القصيدة : ٦ البيتين: ٣ ، ١٢ وأيضاً : ٢/٧ ، ١٥/١٣ — ١٦ ، ٤/١٦ .

(٤) انظر جغرافية شبه جزيرة العرب : ٢١٣ ، ٢٥٤ .

الأحداث الهامة فى حياة ذبيان فى الجاهلية :

ليس من غرضنا هنا، أن نعرض بالتفصيل لحياة ذبيان الطويلة فى الجاهلية ، وما كان فيها من أحداث ، وما وعاه تاريخها من محامد، تغنى بها شعراؤها ، أو مثالب عددها شعراء خصومها ، وإنما قصارانا ، أن نشير إلى أن «ذبيان» كغيرها — من القبائل البدوية — قد دفعتها ظروف البيئة ، وتقاليدها ، إلى أن تشتبك مع غيرها من القبائل فى كثير من المعارك الدامية ، معتدية أو معتدى عليها ، بل لقد اضطرها شح الصحراء عليها فى بعض السنين ، وقلة المرعى ، واشتداد القحط ، إلى الإغارة مع حلفائها من بنى أسد، على ما يليهم من أطراف بلاد غسان ؛ ليصيبوا من نعمهم ، أو يرعوا كلأهم ، مما كان يدفع الغساسنة إلى أن يرسلوا لهم من يؤدبهم وينكل بهم[١] .

ومن ثم كان لذبيان بين أيام العرب فى الجاهلية أيام مشهورة . احتفظت لنا بعض المصادر بتفصيل أحداثها ، وما أحرزته ذبيان فيها من انتصارات ، أو منيت به من هزائم ، وما أبداه فرسانها من ضروب البطولة ، وما فقدته فيها من أبطال[٢] .

وقد كان بعض هؤلاء الفرسان شعراء « فكان شعرهم بتاراً كسيوفهم ، يحمس الناس ، ويدفعهم دفعاً إلى الحرب ، يذودون عن الشرف والعرض ، ويحمون الجار ، أو يردون عدوان مغير ظالم ، ويتغنون بانتصاراتهم . . . ويطلقون ألسنتهم فى خصومهم وأعدائهم ، ويندبون بقوافيهم صرعاهم ، والقتلى من أشرافهم وزعمائهم . . . وكان ثمة شعراء يقفون بجانب هؤلاء الأبطال . . . يشجعونهم على الصبر والجلد فى القتال ، والصدق عند اللقاء ، والانتصار للعشيرة . . . ويرثون من سقط فى حومة الوغى من أبطالهم وفرسانهم ، ويعدون مفاخرهم . . وإن لم يخوضوا المعمعة »[٣] .

وقد ظلت أخبار هذه الأحداث وأشعارها وذكرى أبطالها ، حية فى ذاكرة الأجيال من بنى ذبيان . يتلقاها خلفهم عن سلفهم ، ويستلهمها شعراؤهم — على مدى الأجيال — شعرهم فى الفخر والحماسة والهجاء . . .

---

(١) انظر : النابغة الذبيانى : ٧٨ — ٧٩ وما بعدها .

(٢) انظر : أيام ذبيان وتفصيل أخبارها فى : العقد الفريد : ٣/٣٠٥ وما بعدها ، والكامل لابن الأثير : ١/٢٠٤ — ٢١٣ ، وبلوغ الأرب : ٢/٥٦ — ٧٣ ، والعمدة : ٢/١٦١ وما بعدها . وأيام العرب فى الجاهلية : ٢٤٢ — ٢٧٧ و ٢٨٣ — ٢٩٩ و ٣٤٩ — ٣٦٤ و ٣٧٣ — ٣٧٤ .

(٣) النابغة الذبيانى : ٦٢ .

ديانة ذبيان فى الجاهلية :

كانت ذبيان فى الجاهلية وثنية، شأن الكثرة من العرب، تشترك مع قبائل غطفان وغيرها فى عبادة «العزى »[١] التى يقال : إنها كانت شجرة سمرة « بواد من نخلة الشامية، عن يمين المصعد إلى العراق من مكة، فوق "ذات عرق" بتسعة أميال...»[٢] وقد اتخذوا عليها بيتاً، كانت تعظمه قريش وكنانة ومضر كلها[٣] يحجون إليه، ويقدمون له النذور والقرابين ، وقد قطعها، وهدم بيتها، خالد بن الوليد بأمر الرسول (ص) فى السنة الثامنة من الهجرة، عقب فتح مكة[٤].

وإلى جانب عبادة « العزى » كانت ذبيان تعظم الكعبة، كما كان يعظمها سائر العرب ؛ فهى بيت الأمة العربية جمعاء ، ومجمع آلهتهم ، وهيكل أربابهم ، وفيها وحولها كانت جميع أصنام العرب، حتى لقد بلغت عدة هذه الأصنام ثلثمائة وستين صنما، حين دخل النبى (ص) مكة فاتحاً[٥] ؛ ولذا كانوا يحجون البيت فى موسم الحج، ويحرمون ويقفون المواقف، ويهدون الهدايا، ويعظمون الأشهر الحرم ، فلا يكون فيها عدوان ، ولا قتال ، إلا بعض القبائل مثل : طيئ وخثعم وبعض بنى الحارث بن كعب ، فإنهم ما كانوا يحرمون ولا يعتمرون ، ولا يحرمون الأشهر الحرم، ولا البلد الحرام[٦].

وكانت ذبيان من القبائل التى اتصلت باليهود والنصارى ، فقد ذكرنا آنفاً أن منازلها كانت قريبة من واحات الحجاز، التى سكنها اليهود ، وهى : خيبر وفدك وتيماء ووادى القرى . وكان بنو ثعلبة بن سعد بن ذبيان حلفاء لليهود بوادى القرى[٧]، كذلك كانت ديار بعضهم قريبة من « يثرب » حيث استقرت عشائر يهودية، « أهمها بنو النضير ، وبنو قريظة ، وبنو قينقاع ، وبنو بهدل[٨] » .

---

(١) انظر تاريخ الأدب العربى فى العصر الجاهلى (شوقى ضيف) : ٨٩ ، ٢٦٨ .

(٢) بلوغ الأرب : ٢/٢٠٣ . وانظر أيضا : ٢٠٤ — ٢٠٥ من نفس المرجع .
والسمرة : واحدة السمر : وهو شجر قصير الشوك ، صغير الورق خشبه من أجود الخشب .

(٣) الكامل لابن الأثير : ٢/٩٩

(٤) المصدر السابق .

(٥) انظر : بلوغ الأرب : ٢ ٢١١ . والكامل لابن الأثير : ٢/٩٦ .

(٦) أطوار الثقافة والفكر : ١/٣٣ ، وانظر أيضا : نهاية الأرب . للقلقشندى ٤٥٢ .

(٧) الأغانى : ٣/٨٠ .

(٨) تاريخ الأدب العربى فى العصر الجاهلى (شوقى ضيف) : ٩٧ .

وهؤلاء اليهود، كانوا قد اصطبغوا بالصبغة العربية، واتخذوا العربية لساناً لهم، ونظم بعضهم فيها شعراً، واشتهر من بينهم غير شاعر: كالسموءل بن عادياء صاحب حصن الأبلق المعروف بتيماء. وبه يضرب المثل فى الوفاء، وصون الأمانة، والربيع ابن أبى الحقيق، وكعب بن الأشرف من بنى النضير. وله مناقضات مع حسان بن ثابت وغيره، فى الحروب التى كانت بين الأوس والخزرج فى الجاهلية . . وغيرهم، كما كانوا يشتغلون بالزراعة والصناعة، وخاصة صناعة الأسلحة والنسيج فى يثرب[١].

فكان طبيعياً أن يقصدهم البدو القريبون منهم ليمتاروا لأهلهم [٢]، ويشتروا ما يلزمهم من مصنوعاتهم.

أما اتصالهم بالنصارى فكان عن طريق الغساسنة بالشام، حيث كانت ذبيان وحلفاؤها من بنى أسد يغيرون على أطراف مملكتهم، فيرسل لهم الغساسنة من يؤدبهم، وكان « كثيراً ما يأخذ الغساسنة أسرى من ذبيان ومن أسد »[٣].

وقد يضاف إلى ذلك، ما يذكر من أن بعض القبائل المجاورة لهم أو القريبة من ديارهم، كانت النصرانية قد فشت فيهم — قبيل الإسلام — مثل طيئ، وكثير من كلب[٤].

ومع ذلك فإن اتصال ذبيان باليهود والنصارى، لم يخلف آثاراً واضحة فى عقيدتهم الوثنية[٥]، واقتصر أثر هذا الاتصال، على ظهور بعض الألفاظ الدينية الاصطلاحية فى كلامهم، والتشبيهات التى استمدها من حياة هؤلاء وأولئك بعض شعرائهم، كالنابغة الذبيانى[٦] والشماخ، الذى يقول مشبهاً سواد أرجل بقر الوحش، بسواد خفاف اليرندج فى أرجل النصارى المعروفين بلباسها :

---

(١) المصدر السابق.

(٢) فى أخبار الشماخ: أنه كان يقصد المدينة ليمتار لأهله.

(٣) النابغة الذبيانى: ٧٩.

(٤) انظر: جمهرة أنساب العرب: ٤٥٧.

(٥) كذلك كانت مضر كلها، لم تغلب عليها يهودية ولا نصرانية، إلا ما كان من قوم منهم، نزلوا الحيرة، يسمون العباد، فإنهم كانوا نصارى، ولم تعرف مضر إلا الوثنية ثم الإسلام (راجع فى أسباب عجز اليهودية والنصرانية عن اكتساح الوثنية: الحياة العربية من الشعر الجاهلى: ٥٧ — ٨٢).

(٦) انظر: النابغة الذبيانى: ١٥٧ وما بعدها.

وَدَاوِيَّةٍ قَفْرٍ تَمَشَّى نِعَاجُها كمشْى النَّصارَى فى خِفَافِ اليَرَنْدَجِ [١]

وقوله فى تشبيه رسم دارس :

أَتعرفُ رَسْماً دراساً قد تَغَيَّرَا بِذَرْوَةَ أَقْوَى بعد لَيْلَى وأَقْفَرا
كمـــا خَطَّ عِبْرَانِيَّةً بيمينه بِتَيْمَاءَ حَبْرٌ ثم عَرَّضَ أَسْطُرا [٢]

وغيرهما من الشعراء .

وقد يكون أثر هذا الاتصال قد تعدى ما ذكرناه، إلى اعتناق نفر منهم المسيحية أو اليهودية ، فقد روى : أن «جبل بن جوال، الشاعر الثعلبى الذبيانى» كان يهودياً مع بنى قريظة فأسلم، ورثى حيى بن أخطب بأبيات منها :

لعمرك ما لام ابنُ أخطب نَفْسَه ولكنَّه من يَخْذُلِ اللهُ يُخْذَلِ [٣]

ومع ذلك، فقد يكون « جبل بن جوال» هذا، هو الوحيد الذى عدل عن دين قومه إلى دين يهود — إن صح أنه فعل — وحتى لو كان هناك غيره ممن لم يصل إلينا خبره ، فلا شك أن ذلك كان من القلة والندرة، بحيث لا يقدح فيما نذهب إليه، من أن ذبيان ظلت على وثنيتها حتى دخلت مع من دخل فى الإسلام .

ذبيان والإسلام :

سبقت الإشارة، إلى أن غطفان — بعامة — كانت فى مقدمة القبائل القيسية، التى اشتد عداؤها للإسلام ، فلم يكد يمضى على استقرار الرسول (ص) فى المدينة أقل من عامين، حتى نهضت غطفان ؛ لمناوأة الإسلام وحرب المسلمين .

وأغلب الظن أن غطفان — خلال هذين العامين — كانت تتربص بالمسلمين ، وتنتظر ما ستفعله قريش زعيمة الوثنية، حيال هذه الدعوة الجديدة، التى أصبحت تشكل خطراً، لا على الأوثان والآراء الموروثة والسنن القديمة فحسب، بل على مكانة

---

(١) الديوان : القصيدة ٢ البيت : ٣٠ .
(٢) الديوان القصيدة : ٥ : البيتين : ١ ، ٢ .
(٣) انظر : الإصابة : ٢٣٢/١ ، وأنساب الأشراف : ١٢ لوحة : ١١٠٦ ، وأسد الغابة : ٢٦٧/١ ، وأيضاً : سيرة ابن هشام : ١٩٨/٢ .

قريش ، وزعامتها للعرب ، وطرق تجارتها بصفة خاصة ، وكانت وقعة « بدر » حيث رمت مكة محمداً وأصحابه بأفلاذ كبدها . فهزمهم الله وأخزى أئمة الكفر ، وشفى صدور المسلمين منهم ، وعادت قريش مثخنة بجراحها ، مخلفة وراءها كثيراً من شيوخها ، وذوى الرأى فيها ، صرعى فى أرض المعركة .

وكأنما عز على غطفان مصرع قريش ببدر ، فقامت تجمع جموعها لحرب المسلمين . وقامت معها « سليم » . وبلغ الرسول اجتماعهم . فنهض للقائهم . ولم يمض على عودته من بدر إلا سبع ليال[١] . فلما سمعوا بمقدمه انفرط عقدهم ، وولوا هاربين .

وتوالت اعتداءات الجموع من غطفان — وخاصة من بنى ثعلبة بن سعد[٢] (رهط الشماخ) وبنى فزاره[٣] من ذبيان — على المسلمين . وتوالت غزوات الرسول وسراياه إليهم ، ردعاً لهم وردًّا على عدوانهم ، لا اعتداء ، فقد كان من سياسة الرسول (ص) منذ أيامه الأولى فى المدينة ، أن يترك الوثنيين . لا يتعرض لهم بسوء ، طالما كانوا بعيدين عن إظهار عدائهم للمسلمين[٤] .

ولعل ما عرف عن غطفان من شدة عدائها للإسلام والمسلمين ، هو الذى جعل يهود بنى النضير — بعد أن أجلاهم الرسول (ص) عن المدينة — يلجأون إليهم ، وإلى قريش خاصة ، يستنصرونهم على المسلمين فى غزوة الخندق[٥] انتقاماً منهم لإجلائهم عن ديارهم ، ولكن الله نصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده ، وعادت غطفان إلى ديارها ، وقلوبهم تغلى مراضها على المسلمين ، فلما علم الرسول بعودتهم قال : « الآن نغزوهم ولا يغزونا فكان كذلك . . »[٦] ؛ وذلك أن الرسول (ص) حين تألبت عليه القبائل ، بزعامة قريش ، وأصبحوا كافة عليه ، أمره الله بقتالهم كافة ، فقال تعالى : « وقاتلوا المشركين كافة ، كما يقاتلونكم كافة »[٧] .

---

(١) الطبرى : ٢/٢٩٩ .

(٢) انظر : أنساب الأشراف (مطبوع) : ١/٣١١ و ٣٤٠ و ٣٧٧ . والكامل لابن الأثير : ٢/٥٣ و ٦٦ .

(٣) انظر : الطبرى : ٣/٨٣ و ٩٩ والكامل لابن الأثير : ٢/٦٧ و ٧١ و ٧٩ .

(٤) تاريخ الإسلام السياسى : ١/١٣٤ .

(٥) انظر : الطبرى : ٣/٤٤ ، والكامل لابن الأثير : ٢/٦٧ .

(٦) الكامل لابن الأثير : ٢/٦٩ .

(٧) سورة التوبة : آية : ٣٦ .

ولم تترك غطفان فرصة إلا وأكدت عداءها للمسلمين ، فحين توجه الرسول (ص) لفتح خيبر (سنة ٧ هـ) انتقاماً منهم لمساعدتهم لبنى النضير، فى تأليب الأحزاب على المسلمين — قصدت غطفان خيبر ؛ ليظاهروا اليهود على رسول الله (ص)، ولكن الله قذف فى قلوبهم الرعب ، فخافوا أن يخلفهم المسلمون فى أهليهم وأموالهم ، فارتدوا على أعقابهم ، وخلوا بين المسلمين وبين خيبر [١].

وهكذا ظلت ذبيان وغيرها من قبائل غطفان ، تظهر نفورها من الإسلام ، وعداوتها للمسلمين ، حتى أتم الله نعمته ، على الإسلام والمسلمين بفتح مكة (سنة ٨ هـ) فرأت هذه القبائل ، وغيرها من القبائل العربية ، التى رفضت الدعوة بادئ ذى بدء ألا طاقة لهم بحرب المسلمين . ولا عداوتهم ، واعتقدوا أن المسلمين تلحظهم عناية إلهية ، لا قبل لغيرهم بها ، فسارعوا إلى الإسلام ، وأقبلت وفود غطفان (عبس ، وفزارة ، ومرة بن عوف ، وثعلبة بن سعد)[٢] إلى الرسول (ص) ودخلوا فى دين الله أفواجاً .

ومعنى هذا أن هؤلاء الأقوام — أو أكثرهم على الأقل — لم يرغبوا فى الإسلام عن إدراك لروحه ، واقتناع بتعاليمه ، وإنما سياسة ومداراة ، فقد سقطت مكة قلعة الوثنية وراعيتها ، ودخلت قريش فى هذا الدين ، الذى كانت تتزعم العرب فى حربه ومناوأته ، وهناك من الدلائل ما يؤيد ما نذهب إليه ، من ذلك : أن وفد ثقيف طلبوا من الرسول (ص) ألا يكسروا أصنامهم بأيديهم ، فأعفاهم من ذلك ، وطلبوا منه أن يعفيهم من الصلاة ، فقال : لا خير فى دين لا صلاة فيه ، ولكنه كان يعلم مدى إيمانهم ، فأوصى أميره عليهم بالتخفيف فى الصلاة بهم ، تأليفاً لقلوبهم ، وحتى تتاح الفرصة لتعاليم الإسلام ، لكى تتشربها قلوبهم ؛ ولذا كانت ثقيف من القبائل التى صدق إسلامها [٣].

وقدم وفد تميم على الرسول (ص) فنادوه ، فخرج لهم ، فخطب خطيبهم ، وقال

---

(١) الطبرى : ٣/٩٣ ، والكامل لابن الأثير : ٢/٨٢ .

(٢) راجع خبر هذه الوفود فى : طبقات ابن سعد (لجنة الثقافة) : ٢/٦١ — ٦٣ ، والبداية والنهاية لابن كثير : ٥/٨٨ — ٨٩ . وتاريخ ابن خلدون (العبر وديوان المبتدأ والخبر) : ٢/٥٣ .

(٣) تاريخ الأمم الإسلامية : ١/١٤١ .

شاعرهم، مفتخرين بقومهما، ثم رد خطيب المسلمين على خطيبهم، وشاعر المسلمين على شاعرهم ، فلما فرغا ، قال أحد أشرافهم : « إن هذا الرجل لمؤتى له، خطيبهم أخطب من خطيبنا ، وشاعرهم أشعر من شاعرنا ، ثم أسلموا »[1] .

وهذا يدل على مدى إدراك هؤلاء الناس للإسلام ، وهو إدراك قاصر لا شك ، وآية قصوره استدلالهم على صدق الرسول (ص) بكون خطيبه أبلغ من خطيبهم ، وشاعره أشعر من شاعرهم ، وهو بعد أقوى دلالة على مدى احتفال العرب بالفصاحة والبلاغة واللسن .

ولعل من أقوى هذه الدلائل وأوضحها ، ما كان من ارتداد العرب — فيما عدا مكة والمدينة والطائف — عن الإسلام ، بعد وفاة الرسول (ص) وتنصيب أبي بكر القرشي خليفة على المسلمين .

وليس من غرضنا هنا أن نقص أسباب هذه الردة، وحسبنا أن نشير إلى أنها في مجموعها ، قوية الدلالة على أن هؤلاء المرتدين ، لم يكن الإسلام قد تعمقهم، ولم يدخلوا فيه عن إدراك واع لحقيقته ، واقتناع بتعاليمه ، وأن العصبية القبلية — وهي من أهم النزعات الجاهلية، التي جاء الإسلام لمحوها — كانت من أبرز هذه الأسباب .

كانت غطفان من القبائل التي سارعت إلى الارتداد عن الإسلام ، بل لقد كانت عبس وذبيان أول من صادم أبا بكر من المرتدين .

ارتدت ذبيان إذن ، مع من ارتد من قبائل غطفان، وغيرها من القبائل ، إلا ما كان من خواص أقوام منهم ، واجتمعت مع غيرها، من قبائل غطفان وأسد وطيئ على « طليحة الأسدي » — وكان قد ادعى النبوة قبل وفاة الرسول (ص) بفترة قصيرة — تدفعها عصبية مقيتة ، عبر عنها قائدها « عيينة بن حصن الفزاري » في قوله : « نبي من الحليفين — يعني أسداً وغطفان — أحب إلينا من نبي من قريش ، وقد مات محمد وطليحة حيّ . . . »[2] .

وهذه العصبية نفسها ، كانت من أقوى الأسباب ، في التفاف قبائل ربيعة حول

---

(١) الكامل لابن الأثير : ٢/١١٠ — ١١١ ، وانظر أيضا : تاريخ الأمم الإسلامية : ١/١٤١ — ١٤٢ .

(٢) الكامل لابن الأثير : ٢/١٣٠ .

« مسيلمة » ، شاهد ذلك قول طلحة النمرى لمسيلمة : « من يأتيك ؟ قال : رحمن ، قال : أفى نور أو فى ظلمة ؟ قال : فى ظلمة ، فقال : أشهد أنك كذاب ، وأن محمداً صادق ، ولكن كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر، فقتل معه يوم عقرباء . .»[١] .

نهض أبو بكر لقتال هؤلاء المرتدين، بكل ما عرف عنه من حزم وعزم وغيرة على الدين ، ففاجأ جموع عبس وثعلبة بن سعد ، ومرة بن عوف — والأخيران من ذبيان — بذى القصة، قريباً من المدينة، فما شعروا بالمسلمين حتى وضعوا فيهم السيوف، فولوا الأدبار ، وكان ذلك أول الفتح وفاتحة الجهاد مع المرتدين ، ولما هزم أهل ذى القصة « وثبت عبس وذبيان على من فيهم من المسلمين فقتلوهم »[٢] .

وبانتصار المسلمين فى هذا اللقاء الأول عز المسلمون ، وازدادوا به ثباتاً على دينهم، فى كل قبيلة .

ثم تعقب أبو بكر هؤلاء المرتدين، حتى غلب بنى ذبيان على ديارهم بالربذة، وأجلاهم عنها ، وقال : «حرام على بنى ذبيان أن يتملكوا هذه البلاد؛ إذ غنّمناها الله[٣]».

وأخيراً ، انتهى أمر طليحة الأسدى على يد خالد بن الوليد وارفض جمعه ، وحينئذ دخلت ذبيان فيما خرجت منه ، وعادت إلى حظيرة الإسلام .

شعراء ذبيان :

حملت قيس لواء الشعر فى الجاهلية — كما تقدم — وهى بالنظر إلى القبائل ، من حيث عدد الشعراء ، تعتبر أكثرها شعراء[٤] .

وقد خص ذبيان منهم جملة وافرة ، كما نبغ فيها كثير من الشعراء المخضرمين والإسلاميين .

كانت ذبيان من القبائل التى كثرت حروبها ، واشتدت غاراتها على جيرانها ،

---

(١) الطبرى : ٣/٢٤٦ .
(٢) الطبرى : ٣/٢٢٤ ، والكامل لابن الأثير : ٢/١٣١ .
(٣) الطبرى : ٣ /٢٢٤ .
(٤) تاريخ آداب اللغة العربية (جورجى زيدان) ١/٧٥ .

وذلك؛ لما كانت تتمتع به من الشرف والعزة والقوة ، ومن ثم برز من بين صفوفها كثير من الشعراء الفرسان[١] الذين أبلوا بلاء حسناً، فى سبيل الحفاظ على أمجادها بسيوفهم وأشعارهم ، وسجلوا فى هذه الأشعار أيام قومهم ، وآيات البطولة التى أبداها شجعانهم .

أضف إلى ذلك ، أن ذبيان كانت تعيش بنجد ، ونجد — كما هو معلوم — بيئة شاعرة ، طالما كانت مصدر وحى وإلهام ، لكثير من شعراء ذبيان وغيرهم .

وإذن ، فشعراء ذبيان كثيرون ، نخص بالذكر منهم — عدا شاعرنا الشماخ :

١ — النابغة الذبيانى :

شيخ شعراء ذبيان ، وأفحلهم ، والمقدم عليهم ، وأحد الشعراء المعدودين من الطبقة الأولى ، فى العصر الجاهلى « يتبارى فى ميدان الأسبقية . مع امرئ القيس وزهير »[٢] .

وإليه كانت الحكومة فى تقديم الشعراء بعضهم على بعض ، روى أبو الفرج بسنده عن الأصمعى قال : « كان يضرب للنابغة قبة من أدم بسوق عكاظ ، فتأتيه الشعراء ، فتعرض عليه أشعارها . . »[٣] .

٢ — الحصين بن الحمام المرى[٤] :

شاعر مشهور ، وفارس مقدم ، كان سيد قومه ورائدهم ، وكان يقال له : مانع الضيم ، ومن شعره قوله :

---

(١) أورد الآمدى كثيراً من هؤلاء الشعراء الفرسان ، وروى لهم شعراً فى كتابه : المؤتلف والمختلف . وأيضاً: المرزبانى فى : معجم الشعراء ، واختار المفضل الضبى مقطوعات من أشعار بعضهم، ضمن مختاراته ، وهى المفضليات أرقام : ١٢ ، ١٥ ، ١٧ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٣ .

(٢) النابغة الذبيانى : ١٦٢ .

(٣) الأغانى : ٩/١٥٦ .

(٤) انظر أخباره وشعره فى : الأغانى : ١٢/١١٨ وما بعدها ، والمؤتلف والمختلف للآمدى ٩١ ، والإصابة : ٢/١٨ — ١٩ ، والاستيعاب : ١/١٢٧ ، والمفضليات : ١٢ ، ٩٠ .

ولما رأيت الودَّ ليس بِنَافِعِى   وإن كان يوماً ذا كواكب مُظْلما

صبرنَا وكان الصبرُ منا سَجِيَّةً   بأَسيافنا يَقْطَعْنَ كَفًّا ومعْصَمَا

نُفَلِّق هاماً من رجالٍ أَعِزَّةٍ   علينا وهمْ كانوا أَعَقَّ وأَظْلَمَا(١)

« ويروى عن أبي عبيدة أنه قال : اتفقوا على أن أشعر المقلين فى الجاهلية ثلاثة : المتلمس ، والمسيب بن علس ، وحصين بن الحمام المرى »(٢) .

٣ ـ الحادرة (٣) (قطبة بن أوس الثعلبى) :

من شعراء الجاهلية ، قال الأصمعى (٤) : « سمعت شيخاً من بنى كنانة ، من أهل المدينة ، يقول : كان حسان بن ثابت إذا قيل له : تنوشدت الأشعار فى موضع كذا وكذا ، يقول : فهل أنشدت كلمة الحويدرة : بكرت سمية غدوة فتمتعى » قال أبو الفرج : « قال أبو عبيدة : وهى من مختار الشعر ، أصمعية مفضلية »(٥) .

٤ ـ المزرِّد بن ضرار الثعلبى (٦) :

شاعر فارس ، مخضرم ، وهو أخو الشماخ ، والمزرد من المبدعين فى وصف العدد الحربية ، ومن قوله فى وصفه رمحه :

ومُطَّرِدٌ لَدْن الكعوب كأنما   تَغَشَّاه مُنْباعٌ من الزَّيْت سَائِلُ

---

(١) الشعر ومناسبته فى الأغانى : ١٢ / ١٢٠ .

(٢) العمدة : ١ / ٦٦ .

(٣) له أخبار وشعر فى : الأغانى : ٣ / ٧٩–٨١ ، وللحادرة ديوان مخطوط ، برواية أبى عبد الله محمد بن العباس اليزيدى ملحق بآخر الجزء الأول من منتهى الطلب لابن المبارك (ز ١٢٦٣١ دار الكتب المصرية) .

(٤) الأغانى : ٣ / ٨٠ .

(٥) المصدر السابق ، وكلمة الحادرة هذه هى المفضلية : ٨ فى المفضليات .

(٦) لمزرد ديوان مطبوع ببغداد سنة ١٩٦٢ ، بعناية الأستاذ : خليل إبراهيم العطية ، قدم له بدراسة موجزة لحياة المزرد وشعره .

أَصَمُّ إذا ماهُزَّ مَارتْ سَرَاته كما مَارَ ثعبانُ الرِّمال المُوَائِلُ
له زائدٌ ماضِي الغِرارِ كأَنه هلالٌ بدا فى ظلمة الليل ناحلُ[١]

وكان المزرد هجاء، خبيث اللسان ، وقد وصف هجاءه وشعره فى قوله :

وقد علموا فى سالف الدَّهر أَنَّنى مِعَنٌّ إذا جَدَّ الجِرَاءُ ونَابِلُ
زعيمٌ لمن قاذفتُه بأَوابدٍ يُغَنِّى بها السَّارِى وتُحْدَى الرَّوَاحِل
مُذَكَّرةٌ تلقى كثيرًا رواتُها ضواحٍ لها فى كل أَرض أَزَامِلُ
تكُرُّ فلا تزدادُ إلا استنارةً إذا رَازَت الشعرَ الشِّفَاهُ العَوَامِلُ
فمن أَرْمِهِ منها ببيتٍ يَلَحْ به كشَامَةِ وجْهٍ ليس للشَّامِ غَاسِلُ
كذاك جزائى فى الهَدِى وإن أَقلْ فلا البحر منزوحٌ ولا الصوت صَاحِل[٢]

ويذكر ابن فضل الله العمرى مزرداً ويقول[٣] : « . . لم ير أحسن من حد سيفه المورد . . افترست به أذؤب ذبيان الأسود الكواسر . . وعرف به أن غابة ذبيان مسبعة ، وأن سحابة صيفى جده مغيثة[٤] مربعة . . . »

هذا : ومن شعراء ذبيان المشهورين فى الإسلام : شبيب بن البرصاء[٥] ، وأرطاة بن سهية[٦] ، وعقيل بن علفة[٧] ، وابن ميادة[٨] . . وغيرهم .

---

(١) ديوانه : ٤٥–٤٦ . مطرد : متتابع ليس فيه اختلاف ، منباع : سائل . مارت : اضطربت ، الموائل : طالب النجاة . زائد : يريد سنان رمحه ، وغرار السنان : حده .

(٢) ديوانه : ٤٧ معن . ذاهب فى كل وجه . نابل : حاذق . الجراء : الجرى . أوابد : وحشيات من الشعر العوامل : أى حين تروى الشفاه الشعر، تنظر كيف هو عامل . الهدى : المهداة . صاحل : مبحوح .

(٣) مسالك الأبصار : ٩ قسم (١) لوحة : ٦١ .

(٤) فى النسخة « بغيثة » والصواب ما أثبتناه .

(٥) له أخبار وشعر فى : الأغانى : ١١/٨٩ وما بعدها ، والمؤتلف والمختلف : ٦٨ .

(٦) خبره وشعره فى الأغانى : ١١/١٣٤ وما بعدها .

(٧) انظر خبره وشعره فى الأغانى : ١١/٨١ وما بعدها ، والمؤتلف والمختلف : ١٦٠ .

(٨) انظر الأغانى : ٢/٨٥ وما بعدها ، والمؤتلف والمختلف : ١٢٤ . واسم ابن ميادة : الرماح بن أبرد ، وميادة : أمه وهى أم ولد .